روايــة

هكذا قتل زارا

عمرو صالح

هكذا قَتَلَ زارا

رواية

عمرو صالح

دار اكتب للنشر والتوزيع

ذات يوم سوف يرتبط اسمي بذكري شيء مُرعب..

يرتبط بكارثة ليس لها مثيل..

أنا لستُ رجلاً.. أنا ديناااااااااميت..

الإهداء

إلى أمي أ.إيمان صلاح الدين.. السيدة العظيمة والأستاذة الفاضلة التي أفنت عمرها وضحّت بشبابها من أجلنا..

وشيماء زوجتي الجميلة وسكني وتوأم روحي..

ومنى أختي الوحيدة الحبيبة رفيقة الطفولة وأم إيثار..

وأميرتي المنتظرة..

تمهيد

كانت الدماء متناثرة في كل مكان.. لطخ السائل القاني كل بقعة تقريبًا.. مُلاءات الفراش الناصعة البياض.. مقعد الفوتيه الأزرق.. المكتب الأبنوسي.. الأبواب.. الجدران.. المرآة.. البساط.. بلاطات السيراميك.. كل بقعة.. كل بقعة..

بينما داخل الحمام تقبع جثة مُسجّاة في بركة من الدماء مُشوَّهة بالكامل.. الوجه مُمزَّق، وبه جُرح قطعي غائر من الفم حتى زاوية الأذن مُحدثًا ذلك التأثير المخيف المعروف باسم "ابتسامة جلاسكو"، والجسد نفسه مبتور إلى نصفين من الخصر، والذراعان والساقان مقطوعان أيضًا، ومكدسان فوق بعضهما البعض في ركن الغرفة المجاورة.

اللعنة.. هذه الجريمة غير معقول أن يرتكبها آدمي.. هذه الجريمة جديرة بدُبٍّ متوحش أو الجوكر.. لكننا في عالم الواقع في القاهرة وليس في الأدغال أو جوثام سيتي.. للأسف.

***

18 يناير..

كانت غرفة التحقيق مظلمة كالقبور.. باستثناء ضوء أصفر شاحب مثير للأعصاب ينبعث من مصباح مريض يتدلَّى من السقف.. بالضبط كمشاهد التحقيق الكلاسيكية كما أظهرتها الأفلام في أقبية أمن الدولة والمخابرات.. بينما يجلس على كرسي معدني أمام طاولة مستطيلة معدنية أيضًا شخص بائس يبدو عليه الإرهاق الشديد.. كأنما مضت ليالٍ كاملة لم تتذوق فيها جفونه طعم النوم.. ربما بسبب القلق أو بسبب التعذيب..*

حتى انفتح باب الغرفة الذي أصدر صريرًا مخيفًا كأنما ديناصور يتأوَّه.. ليدخل منه ثور آدمي في صورة بشرية يرتدي ثيابًا مدنية.. قميصًا رماديًّا وسروالًا من قماش أسود.. من بنيته القوية يبدو كأحد رجال الشرطة..

شَدَّ الضابط مقعده ثم جلس بمواجهة المجرم وقام بطرقعة أصابعه ثم طقطق عنقه كأنما يتجهز لالتهام فريسة.. بعدها نظر بحدة نحو المتهم وعلى وجهه تلوح ابتسامة صفراء مخيفة حتى بدأ الحديث بصوت هادئٍ بارد:

– بادئ ذي بدء أحبُّ أن أعرفك بنفسي..أنا الرائد محمد الرفاعي.. طبعا أعتذر لك عن المعاملة غير الملائمة التي تلقيتها، لكنها طبيعة الأمور كما تعرف.. صحيح قبل أن نبدأ بالتعارف ما المشروب الذي تُفضِّله؟! شاي.. نسكافيه.. قهوة.. كولا.. أي شيء تبتغيه.. لا أريدك أن تتلقَّى عنا انطباعًا خاطئًا كما يروج عننا الإعلام بأننا بخلاء.. صدقني الداخلية كريمة جدًّا، وكُلُّ مَن يعمل بها مِن طراز حاتم الطائي..

ابتسم المتهم ابتسامة مرتعشة وهو يمسح قطرات العرق التي تراصفت على جبهته.. ثم قال بصوت متردد:

– لا شكراً يا حضرة الضابط..لو كان بالإمكان كوب ماء فقط.

فضغط الضابط على زر في جانب المنضدة وطلب بلهجة آمرة كوب ماء مع قدح قهوة مضبوط، وفي خلال ثوان تمت تلبية طلبه فدخل عسكري على الفور بما طلبه..

---

* كان السوفييت مشهورين بتعذيب سجنائهم بمنعهم النوم باستخدام غاز نيكولاييف..

تجرَّع المتهم كوب الماء دفعة واحدة ككلب شديد العطش حتى انسكبت بضع قطرات على قميصه.. فتورَّد وجهه بعد شحوب كأنما استمدَّ طاقة عظيمة وبُعث من جديد..

بينما رشف الضابط رشفة من قدح القهوة وهو يختلس النظرات إليه..ثم قام بحسر كم قميصه لتبدو شعيرات ذراعه الغزيرة التي جعلته أشبه بمذؤوب.. وقال بذات النغمة الباردة وهو يشبك أصابعه:

– منذ البداية أحبُّ أن أخبرك أنني شديد الطيبة، قلبي يشبه الأطفال.. لكنني أمقتُ بضراوة المخادعين والمرواغين.. كما أن حاسة الشم لديّ قوية جدًّا.. فلو شممت في مرة رائحة الكذب في كلامك ستجدني شخص آخر لن تتخيله حتى في أشنع كوابيسك، والآن أخبرني يا بطل اسمك بالكامل وعمرك ووظيفتك وعنوانك؟!

فأجاب المتهم في امتثال:

– أحمد محمود سيد البكل.. 35 عامًا.. مدرس في كلية الفنون الجميلة..أسكن في شارع أبو بكر الصديق في بولاق الدكرور..

– تمام، وما حالتك الاجتماعية؟!

– أعزب..

صمت الضابط وهلةً ثم قال وقد عقد حاجبيه وعيناه تتفحصان كل جزء في المتهم كأشعة المسح الذري..

– هل فعلًا اعترفتَ يا أحمد بمحض إرادتك بأنك السفاح الذي ارتكب كل هذه الجرائم المتسلسلة في الفترة الأخيرة أم أحدهم أجبرك على ذلك؟!

أطرقَ المتهم رأسه لحظات ثم رفعها وهو يبتسم لأول مرة في خجل مريب وقال بنغمة فخورة..

– لا.. لم يجبرني أحد على قول أي شيء.. أنا فعلًا السفاح..

كانت عينا الضابط تفحصان المتهم الماثل أمامه بريبة كالثعالب.. يسمع الكلام ثم يمرره على آلة كشف الكذب الموجودة داخله.. فقال له وهو يلوك لسانه داخل فمه..

– تمام..أنا أحترم الذين يُقرُّون بجرائمهم.. هذا يوفر عليَّ الطرفين الكثير كما أنه يصبُّ في مصلحة المتهم في النهاية، والآن أخبرني كيف ارتكبتَ هذه الجرائم؟!

فتهللت أسارير أحمد فابتسم ابتسامة واسعة كشفت عن نواجذه.. ثم قال بنبرة سعيدة:

– اممممم..هذا السؤال صعب كما أن إجابته ستخلُّ بالتفاصيل.. لذا أُفضِّلُ أن نتطرق إلى واحدةٍ واحدة..ما الجريمة التي تحبُّ أن أسردها لك؟!

كان مظهر أحمد لا يوحي أبدًا أنه مجرم بوسعه أن يـؤذي هِـرَّة حتى.. فما بالك بنسبة كل هذه الجرائم البشعة إليه؟

باختصار كان متوسط القامة..جسده يميل للامتلاء قليلًا.. شعره ممشط على جانب.. وجهه بريء كالأطفال بالفعل..

فأخرج الضابط محمد من جعبته عبوة سجائر وأشار لأحمد أن يلتقط واحدة منها لكنه اعتذر بأنه لا يُدخن..فاستلَّ واحدة ثم أشعلها ونفث دخانها في تلذُّذ وهو يسأله:

– كما يحلو لك.. المهم أن تحكي لنا بكل صدق.. هل لديك أنت جريمة مفضلة؟!

فابتسم أحمد مرة أخرى حتى بدا طرف لسانه وهو يهز كتفيه:

– كل جرائمي قريبة إلى قلبي..كل جريمة أرتكبها أشعر بأنني عمل فني مميز.. هذه عادتي منذ الصغر..كل عمل أؤديه أتقنه كأنه آخر عمل لديّ وأفضله..لوحاتي شكلَّت متحفي الخاص..كنتُ مُصرًّا أن يكون الأعظم على مر العصور.

ثم أغمض عينيه والتقط نفسًا عميقًا مُنتشيًا كأنما يعيشُ حُلمًا رائعًا..

توهجت فوهة سيجارة الضابط "محمد" في غِلٍّ فقال بصوت جافٍّ في نفاد صبر..

– تمام.. إذن قُصَّ عليَّ ما حدث منذ البداية..أول جريمة فعلتها..

فأجابه أحمد على الفور وهو مُبتهج..

– تقصد لوحتي الأولى.. حسنًا.. سأخبرك بكل شيء.

ثم بدأ يحكي حكايته.

***

1

البداية

(1)

30 ديسمبر..

ارتدى قناع "باوتا" الأسود وقام بإحكام ربطه حول رأسه، ثم حدَّق إلى صورته في المرآة.. كانت هيئته مخيفة.. كالأشباح تمامًا.. قبعة ثلاثية الزوايا تعتمر رأسه، وقناع أسود مخيف غطى كامل وجهه ذا أنف أفطس مرتفع وذقن عريض بدون فتحة للفم، وعباءة حريرية حالكة السواد تنساب فوق جسده كالليل البهيم.. لوهلة أجفل.. سرت في جسده قشعريرة حقيقية.. فانفرج ثغره عن ابتسامة خبيثة لكن لم تنعكس في المرآة بالطبع..

بدا كشيطان آتٍ من العالم السفلي.. الموت الأسود متجسد.. بالرغم من أن هذا الزي كان يرتديه نبلاء فينيسيا في الماضي في أثناء الكرنفالات البهيجة، وفي فيلم "كازانوفا" كان البطل نفسه يرتدي هذا القناع.. لكنه كان أبيض ملائكيًا وليس هذا الأسود اللعين..

جلس على مقعد خشبي ثم ارتدى قفازين أسودين أيضًا وفرك يديه في حماسة.. ثم فتح كاميرا اللاب توب واقترب منها للغاية حتى شغل وجهه كل الشاشة وبدأ في الحديث بصوت رخيم..

– الآن أسجل أول مقطع لي.. الإعلان الأول عن فتح بوابات الجحيم.. فانتبهوا أيها الغافلون.. منذ الآن لن تسمعوا سوى أخبار الموت.. سيطاردكم حارس الظلام بمنجله في كل مكان، وسيسجل التاريخ أن في هذه اللحظة بدأت بصنع تحفي الخالدة بمداد من الدم ودموع الألم.. اللحظة التي ستتحول فيها مدينتكم إلى قطعة من الجحيم.. عندما تصبح مدينة ديس ومستنقعات نهر ستيكس أماكن مرفهة بالنسبة إلى ما ستشهدونه..

ثم تابع بصوت مخيف منذر:

– إنني أعرف مصيري.. ذات يوم سوف يرتبط اسمي بذكرى شيء مرعب.. يرتبط بكارثة ليس لها مثيل..

ثم صمت هنيهة، وعندما تكلم صاح بصوت مروع:

– أنا لست رجلاً.. أنا ديناااااااااميت.

ثم أقفل الكاميرا.

***

(2)

1 يناير..

استيقظت بغتة إثر لدغة الشمس حينما سُلطت أشعة الظهيرة الحارقة على وجهها.. ففتحت عينها بمشقة وهي تتثاءب بميوعة كهرة لطيفة.. تبًّا.. عظام جسدها تُؤلمها بشدة.. كأن دبابة نازية مرت فوق جسدها عشرات المرات وحولتها إلى أشلاء فغدا كل طرف في مكان.. في هذه اللحظة رنَّ الهاتف بأغنية **Hello** لأديل.. أطلقت سُبَّة بالإنجليزية غاضبة.. ثم التقطت الهاتف من فوق الكومود.. كان مُرصَّعًا بالذهب.. يرن بتصميم كأن صاحبه مُصرٌّ على المكالمة كأنها نهاية العالم.. رقم غريب لم ينجح برنامج الترو كوللر في تتبعه.. وبالرغم من عادتها في عدم إجابتها لكنها ردت تلقائيًا.. لكن لم يكن هناك صوت على الجانب الآخر.. فقط أصوات استاتيكية كأن أحدهم يحدثها من كوكب آخر..

– آلوووووو.. آلوووووو..

كررها في نفاد صبرٍ.. لكن لم يرد أحد، فأقفلت الهاتف في عصبية.. ثم استيقظت وهي تزفر غاضبة.

اسمها مريم عزت.. المطربة الشابة الصاعدة.. فاتنة حسناء تنتم إلى أيقونات الجمال.. إيزيس.. أفروديت.. وفينوس..

غراء فرعاء مصقول عوارضها *** تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل كما قال الأعشى.. وجهها مستدير كأنه قمر مستنير.. وجنتيها مكتنزتان مضرجتان بالحمرة كأنهما شقائق النعمان.. ذات عينين كحيلتين تصرعان كل ذي لُبٍّ.. وشفتين شهيتين من الكرز.. عنق طويل مرمري وأسنان لامعة كلؤلؤ مصقول، وشعر طويل فاحم السوداء كالحرير.

كانت ترتدي قميصًا أبيض ضيقًا يحاصر مفاتنها بشدة وسروال جينز قصيرًا يكشف ساقيها المكتنزتين البديعتين.. عندما تبتسم فإن الكون كله يبتسم لك، وربما بسبب هذا فقد ارتقت درجات سلم المجد بسرعة قياسية..

نصبت قدَّها الممشوق ثم جلست على طرف الفراش وهي تشعر بدوار رهيب يعصف برأسها.. يبدو أنها أفرطت في شراب الفودكا ليلة أمس حتى أصابها "صداع الثمالة"..

التقطت قداحتها الفضية الأنيقة ذات اللهب المزدوج ثم أشعلت سيجارة وأخذت تنفث دخانها في ضيق.. التدخين اختراع رائع.. مع كل سيجارة تشعر بأنها تطلق أوجاعها المحتبسة داخل صدرها..

أمسكت بساعتها الثمينة ذات السوار الماسي وأخذت ترمقها بسعادة.. كانت ماركة "ديلانيو" الفاخرة أهداها إليها ثري عربي في الماضي.. لم تُخيِّب أملها قط.. كلما أصبحت مهمومة تنظر إليها تنتشلها من أغوار الأحزان على الفور.. مسحت علي شعرها بعنف في حركة لا إرادية وعندما انتهت من تدخين السيجارة، أمسكت هاتفها مرة أخرى وأخذت تتصفحه، وقد غزت ثغرها ابتسامة طفيفة..

كان حفل رأس السنة بالأمس.. أمضته في فندق سيسليا الشهير.. امتدت السهرة حتى الصباح.. بعدها غزت صورها وهي تتراقص بملابسها المثيرة الشبكة العنكبوتية كجائحة.. كانت تواقة للشهرة بشدة.. **Attention whore** من الطراز الأول.. لدرجة أنها أحيانًا تروج الإشاعات عن علاقتها ببعض الفنانين من أجل مزيد من الضجة وبعض المداخلات الإعلامية التي تنفي فيه الأمر ببراءة كحمل وديع.. وبالرغم من الصِّيت الذي حققته.. لكنها تشعر أنه ينقصها شيء ما.. ربما السينما.

نعم.. يجب أن تتجه للسينما.. لذا فقد اتفقت مع أحد المنتجين أن تظهر في أحد الأفلام ليكون بطولتها الأولى.. من شدة تأثرها بهوليود فإنها تحلم دومًا أن تشارك في فيلم غنائي على منوال **La La Land** هي متأكدة أن نسخته العربية ستحقق نجاحًا باهرًا خاصة مع رقصها الشرقي المثير..

الفوازير أيضًا أحد أحلامها.. فهي النجمة الشاملة.. المعجزة الجديدة.. وريثة نيللي وشريهان.. كما أنها تستعدُّ أيضًا للمشاركة في برنامج تلفزيون واقعي عن حياتها الشخصية مثل كيم كارديشيان وعائلتها.. المهم أن يتحدث عنها الجميع في كل وقت وحين.

اللحظة التي تفقد فيه جمالها ويأفل نجمها ويتوقف العامة عن مشاركة أخبارها ستنتحر وقتها بالتأكيد.. حتى أنها فكرت تكتب كتابًا عن سيرتها الذاتية وقصة نجاحها الشخصي، وكيف أنها نجحت بسرعة الصاروخ، ولا بأس من مشاركة بعض نصائح التنمية البشرية العبثية.. هي ليست بأقل من ديمي لوفاتو بأي حال عندما كتبت كتاب "ابقَ قويًّا **365** يومًا في السنة"..مشاريع..مشاريع.. مشاريع.. رأسها تضج بالمشاريع.

كانت هذه الأفكار تجول في رأسها باستمرار.. لقد كان جاليليو وكل الفلكيين مخطئين.. كل المعارك التي خاضوها مع الكنيسة كانت بلا أي داعٍ.. لم تكن الشمس أو الأرض قط مركز الكون.. مريم عزت هي مركز الكون الحقيقي.

مضت إلى الحمام بتؤدة كغزال يتبختر.. وقفت أمام المرآة.. التقطت صورة سيلفي لها وهي تضمُّ شفتيها ثم قامت بتحميلها على إنستجرام وأسفلها جملة:

صباح الخير على معجبيني ومتابعيني..

بحبكوااااااااا أوووووووي..

خلعت أزياءها بدلال يليق بنجمات الإغراء، فأصبحت عارية تماما كحورية نورانية.. كتلة حية شهية من اللذة المعربدة.. دخلت حوض الاستحمام.. ثم فتحت الصنبور فتساقطت الزخات الدافئة على جسدها بغزارة.. أخذت تُحرِّك شعرها يمينًا ويسارًا كفتيات الإعلانات وهي تدندن وتهز جسدها وتتلوى كأفعى.. اللعنة.. لماذا لم تخطر هذه الفكرة لها من قبل؟! ينبغي أن تصور إعلانًا عن أحد الشامبوهات.. يجب أن يتحول اسمها إلى علامة تجارية مهمة، أو ربما الفيديو كليب الجديد لها تصوره في الحمام وتتحدث فيه عن الحبيب الخائن الوغد وأشياء من هذا القبيل..

استمرت قطرات الماء في الانزلاق علي جسدها الناعم.. واااااااو.. شعور هائل بالانتعاش.. أحيانًا تشعر بأن الماء يغسل روحها من الهموم والقنوط وكل الطاقات السلبية المظلمة.. تكاثفَ البخار على الزجاج كالضباب.. حتى خُيل لها أنها لمحت شبح شخص يتحرك بالخارج.. فأجفلت وأقفلت الصنبور ثم هتفت بحذر..

- هل أحد هنا؟!

لكنه سؤال غبي كالعادة كأنها تتوقع لو وُجِدَ مُقتحم أو لصٌّ ما أن يجيبها..

- نعم يا سيدتي أنا مقتحم وجئت لأقتلك..

لم يجيبها أحد بالطبع.. ربما كانت تتخيل كل هذا.. اللعنة على الفودكا وهلاوسها.. كانت قرأت من قبل أن إدمان الكحول قد يسبب هلاوس وذكريات مزيفة.. على الأرجح كل هذا من تأثيرها.. فتحت الصنبور مرة أخرى واستكملت استحمامها وهواجس غريبة تجول في رأسها.. لو كانت في فيلم رعب فهذا بالتأكيد هو مشهد قتلها مثلما حدث في فيلم Psycho لهيتشكوك..

السفاحون مصابون بهوس غريب في قتل الإناث عاريات في أثناء استحمامهن..سيقتحم أحدهم الغرفة.. ثم يطعنها بسكين عدة طعنات نافذة في الصدر حتى تسقط جثة هامدة مُضرَّجة في دمائها كشاه مذبوحة..

سيناريو متكرر ممل.. لكنه هو الذي حدث حرفيًّا.. لأنه في هذه اللحظة فتح أحدهم باب أنبوب الاستحمام فجأة.. ثم انقض عليها كغول متوحش وباغتها بضربة من الخلف..صرخت.. لكنها صرخاتها ضاعت مع هدير المياه المتساقطة.. ضربة تلو الأخرى في سرعة فائقة حتى تجاوزت العشرين.. كان المهاجم يغرس السكين بين ضلوعها ثم

يخرجها ويطعنها من جديد..تفجرت الدماء من كل بقعة في جسدها.. فتسربت منها روحها سريعا وانهار عالمها في لحظات.. أُسدلت ستارة سوداء أمام بصرها.. فأسبلت عينيها في هدوء ثم تهاوت على الأرضية والدماء تنساب منها حتى شكلت بحيرة صغيرة دموية.. تبًّا.. قد ماتت سريعًا جدًّا..

صُرعت الفنانة الشابة في أوج مجدها..ربما الآن أكثر ما يؤلم روحها أنه لن يكون بوسعها أن تلتقط صورة لجثتها وتشاركها مع معجبيها على الإنترنت.

***

(3)

جلس القاتل على طرف فراش الضحية وهو يلهث.. لم يتوقع قط أن يكون عمل الجزارين بهذه الصعوبة..لقد عانى في تمزيق أجزاء الجثة أكثر مما عاني في قتلها.. صحيح أن القتيلة فاتنة جدًا.. وأنه نادمٌ فقط لأنه لم يفكر في مطارحتها الغرام قبل قتلها، ولولا أنه غير مريض بالنيكروفيليا ربما لفعلها الآن.. لكن لا يهم.. هو يشعر بالفخر في هذه اللحظة وهو ينظر إلى نتاج عمله.. تحفته الأولى الخالدة..

الفيديو الأول الذي نشره لم يُحدث التأثير المطلوب.. فلم تتعدَّ مشاهداته على اليوتيوب أكثر من 2000، والتعليقات اليسيرة التي جاءته حتى كانت ساخرة متهكمة على مظهره وتصفه بأنه يشبه جرذ السقوف الأسود..

لكنه الآن متيقن أن هذه المرة ستكون مختلفة بكل تأكيد، وأنه خلال ساعات لن يتحدث أحد إلا عنه..

أخرج الكاميرا من جعبته..كانت من طراز CanonEOS70D أخذ يربت عليها في حنان كأنها حيوانه الأليف وعيناه جاحظتان نحوها تتحرش بها، ثم همس إليها..

– لقد حان دورك يا حلوتي.. لقد أتممت عملك كما وعدتك وأريدك الآن أن تبهري العالم..

ثم رفع الكاميرا وسلّط عدستها نحو وجهِه ضاغطًا زرَّ التشغيل..

وبدأ الحديث.

***

الفيديو الثاني.. كانت الصورة مهتزة هذه المرة عن سابقتها.. ظهر في الصورة الشخص السابق نفسه مُرتديًا ذات الملابس..القبعة الثلاثية، وقناع باوتا الأسود، والعباءة المظلمة، ولكنه تحدث هذه المرة بصوت أكثر قسوة:

– مرحبا أيها الحمقى.. كنتُ حذرتُكم في المرة الماضية لكنكم كدأبكم مغفلون بُله..فلم تأخذوني على محمل الجد واتخذتموني سخريًا، وهذه هي النتيجة ..

ثم توجهت الكاميرا نحو جثة الفنانة المُمثَّل بها المضرجة في دمائها.. بعدها مضى خطوات قليلة وسلطها على أطرافها المبتورة المكدسة فوق بعضها البعض..بينما واصل الصوت الحديث ممزوجة بضحكات ساخرة مجنونة..

– هاهاهاها.. الصراحة لقد استغرق مني هذه العمل جهدًا شاقًّا.. أظنُّ أنه لو كان الفنان الفرنسي "جيريكو" على قيد الحياة ورأى محاكاتي للوحته الشهيرة سيُصاب بالجنون وربما جثا فوق ركبتيه.. رهبةً وتكريما لي..

ثم رفع صوته ليهتف بنغمة مسرحية..

– سيداتي وسادتي يسعدني أن أقدم لكم.. عبقريتي الأولى.. تحفتي المجيدة.. محاكاة واقعية للوحة "جيريكو الشهيرة" **Anatomical pieces**..

ثم ركّز الكاميرا على الأطراف المشوهة وأسفل منها توقيع باسمه منقوش بالدم..

زارا

***

(4)

– أهلًا بكم في حلقة جديدة من برنامجكم "**On Air**"..

مضى المذيع المُتأنّق بتؤدةٍ وهو يحدق إلى الكاميرا ثم أردف بحماسة ويديه متشابكتان:

– نهاية صادمة لنجمة لامعة..فقد عالم الفن شابة موهوبة في بدايات ارتقائها سُلّم المجد..لا يشغل وسائل الإعلام والسوشيال ميديا خبر مثل جريمة مقتل المطربة الشابة "مريم عزت"، والحزن في الأمر ليس فقط أنها قضت نَحْبها مُبكرًا جدًّا..لكن الطريقة التي وافتها بها المنية.. فالمسكينة قُتلت بأيدي باردة في فندق شهير في العاصمة، ولم يكتف القاتل المخبول بذلك فحسب..لكنه تعمد التمثيل بجثتها وتشويه ملامحها في سادية بشعة، وفوق كل ذلك قام بتصوير جريمته الشنيعة ورفعها على "اليوتيوب" قبل أن تزيله إدارتها لاحقًا لينتشر بعدها كالنار في الهشيم عبر كل مواقع التواصل الاجتماعي..

كان المذيع في أواخر الخمسينيات، وبالرغم من ذلك فقد احتفظ بوسامته.. ربما إثر عمليات التجميل المتلاحقة.. فكان ذي وجه أبيض مستطيل وشعر رمادي مصفف للخلف..يرتدي قميصًا أزرق، ورابطة عنق سوداء يعتليهما حمالات سوداء أيضًا..

كانت تُلقِّبه الصحافة بأنه "لاري كينج "العربي بسبب شدة تشبهه بالمذيع الأمريكي حتى أطلقت عليه أيضًا لقب سيد ميكروفون الشرق الأوسط..

تابع المذيع كلامه ساخرًا وهو يعض شفتيه في أسًى مصطنع..

– لكن الغريب أن هذا السفاح قام بنشر مقطع مرئي تحذيري قبل جريمته بيومين، وللأسف لم تتحرك سلطات الأمن بل تعاملت معه باستهتار حتى نفَّذ تهديده وتمادى في غيِّه ونشر جريمته الأولى متباهيًا بها..

في الفيديو المنشور سترون أن المجرم مُلثَّم بالكامل مثل مقاتلي النينجا..كما أنه وقع باسم مستعار أسفل أطراف الضحية المبتورة مطلقا على نفسه اسم "زارا ".. أيضًا صرح السفاح في هذا المقطع بأن الجريمة التي ارتكبها هي محاكاة للوحة فنية اسمها " **Anatomical pieces** " لفنان فرنسي مشهور في أواخر القرن الثامن عشر يُدعى تيودور جيريكو.. المخيف بجوار كل ذلك..أن هذا المجرم ألمح أن هذه الجريمة لن تكون الوحيدة من نوعها، ولكنها بداية لسلسلة جرائم

دموية تنفيذًا لمخططه المجنون.. فهل يتمكن رجال الشرطة من اعتقاله قبل أن يرتكب جريمة أخرى؟! والآن أدعكم مع بث لمقطع الفيديو التي تظهر فيه جثة الفنانة القتيلة طيَّب الله ثراها.

***

(5)

جلس أمام حاسوبه الآلي جاحظ العينين جامدًا كصنم.. لو نظرت إليه لوليتَ منه فرارًا ولمُلئت منه رعبًا.. يطرق الفأرة بلمسات رتيبة آلية..يحملق في المقطع المرئي الشهير وفور أن ينتهي من مشاهدته يُعيد تشغيله من جديد.. شاهده فوق الخمسين مرة تقريبًا.. يواصل تكراره مرة تلو أخرى على أن أمل أن يخرج بملاحظة جديدة أو دليل غير منظور.

اسمه "يوسف زكي الدين".. مقدم في مباحث العاصمة.. يمثل الصورة النمطية لأي ضابط شرطة يفتن الفتيات.. فهو شابٌّ في منتصف العمر طويل القامة عريض المنكبين ذو جسد رياضي متناسق ولحية دوجلاس تزين وجهه الوسيم وزادته إشراقًا..

بالرغم من ذلك لو دققت النظر إلى وجهه فإنك تلمح حزنًا دفينًا في عينيه.. صاحب هذه الروح قد انكسر لسبب ما.. هناك شيء ما

أضنى روحه وحوَّله إلى أطلال شِبه حيةٍ،وربما ذلك يفسر ولعه بالعمل في تفانٍ غريب..

كان يرتدي معطفًا بُنيًا أدكن، وقميصًا أبيض وسروالًا جينز.. وبجواره على مكتبه يثوي سلاحه الميري ومفكرة صغيرة اعتاد أن يدون فيها أفكاره والتي طالما ساعدته في فكِّ شفرة كثير من الألغاز المعقدة.. فالتقطها وشرع في قراءتها بصوت خفيض كأنه يقوم بعصف أفكاره عسى أن يصل لفكرة جديدة..

أولًا.. القاتل شخصية استعراضية يتعمد جذب الأنظار، وتسليط الضوء حوله.. الأرجح أنه مريض شهرة والدليل على ذلك اختياره لفنانة ذائعة الصيت، لتكون ضحيته الأولى، وثانيًا نشره هذا الفيديو وإصراره على تصوير جريمة بهذه البشاعة..

ثانيًا..القاتل شخصية سيكوباتية يهوى السادية..حيث إنه لم يكتفِ بقتل الضحية بل عَمدَ إلى التمثيل بها في حيوانية فجة..

ثالثًا.. كما أنه مثقف للغاية ومهتمٌ بالفنون بدرجة ما.. ربما يكون هو ذاته فنانًا أو مهووسًا مجنونًا.. حيث إنه استلهم جريمته من لوحة فنية بشعة وقام بتقليدها على أرض الواقع..

رابعًا.. القاتل على الأرجح من عاملين الفندق أو المترددين عليه.. كما أنه ذكي جدًا وبارع للغاية؛ فقد اقتحم غرفة القتيلة بكل هدوء دون أن يلفت الأنظار.. فلم توجد له أي بصمة في مسرح الجريمة

كأنه جاء من العدم وتبخرت آثاره في الهواء الطلق حتى أنه لم تُكتشف الجريمة إلا مصادفة بعد بث المقطع المروع على الشبكة العنبكوتية..

خامسًا.. الأخطر من كل هذا أن القاتل يشير إلى نيته الخبيثة في تكرار جريمته ..

ازدرد ضابط الشرطة ريقه بصعوبة وتسارعت نبضات قلبه وفي أروقة عقله تتردد آخر جملة قرأها..غالبا القاتل سيكرر جريمته.. القاتل سيكرر جريمته.

***

كانت البداية منذ ساعات..عندما ذهب يوسف بنفسه إلى مسرح الجريمة..الفندق الملعون.. سيسليا.. الذي على الرغم من حداثة نشأته كان من أفخم فنادق القاهرة وأسرعها في شهرته..مبنى عملاق مهيب على النمط الحديث يجذب الأنظار بشدة ويبهرها..عندما دخله للمرة الأولى تسلل إليه شعور بالجلال والإثارة..بالذات حينما تجوّل في ردهته الفخمة حيث الثُّريات الكريستالية المتدلية والأضواء المتلألئة والموسيقا الخافتة والمقاعد البيضاء الوثيرة والأواني الخزفية العملاقة واللوحات الفنية الكلاسيكية و.. و .. و..

– هذا المكان هو بحق جنة الرفاهية.. متحف حقيقي للجمال..

هكذا تمتم لنفسه.. لو كان بيده لن يبرحه أبدًا.. هنا يمكننه أن يحل مشكلات العالم بأسرها وهو يرتشف قدحًا من الشاي أو فنجانًا من القهوة.. أو فليذهب العالم إلى الجحيم أساسًا.. لو احترق العالم بأسره في الخارج فلن يعبأ به وهو هنا.. فمنذ أن وطئت قدماه هذا المكان يعتريه شعور غريب بخفّة الروح كأنها تحلق في فلك هذه القطعة الفنية الفريدة.. ربما هذا هو الإسقاط النجمي الذي يتحدثون عنه.. لكنه سرعان ما نجح في استعادة نفسه وأدرك ما يعتريه.. فبسبب كثرة قراءاته النفسية فقد فطِنَ إلى أعراض الانبهار الشديد التي أصابته جيدًا.. أعراض متلازمة ستنندال.. *

استقبلهم مدير الفندق في قلق، والذي كان سيدًا مُهذَّبًا في أواخر الخمسينيات أشيب الفودين، متأنقًا بشدة كعادة موظفي الفنادق.. لكنه بدا متوترًا مُتجهمًا.. بالتأكيد جريمة مثل هذه نازلة وحاقت بفندقهم الشاب وقد تودي بسمعته من الأساس.. لم يتحدث كثيرًا.. عرَّفهم بنفسه ومنصبه.. ثم استقلَّ معهم المصعد إلى الطابق الثالث.. الذي خرجوا منه بخطوات حازمة

*متلازمة "ستنندال" هي متلازمة نفسية تحدث نتيجة الإفراط بالإعجاب بعمل فني أو مشهد طبيعي.. ارتبط اسمها باسم الروائي الفرنسي "ستندال" حينما استطرد في وصف جماليات مدينة "فلورنسا" الإيطالية وأسهب في التفاصيل.. حتى أنه قد تصل أعراض هذه المتلازمة إلى إصابة الشخص بزيادة ضربات القلب والدوار نتيجة النشوة الزائدة التي تصل أحيانًا إلى نوع من الهلوسة.

إلى ممر ضيق بين الغرف حتى وصلوا إلى موقع الجريمة.. الغرفة 313..كان على باب الغرفة يوجد حارسان شخصيان ضخما الجثة.. فأشار إليهما المدير فانطلقا على الفور.. ثم أمسك ببطاقة ممغنطة دسَّها في موقعها الملائم وفتح الباب.. هبت من الداخل ريح باردة بثَّت في أجسادهم قشعريرة.. ريح باردة تحمل رائحة الموت والدم..

قطَّب يوسف جبينه في حزم وهو يُحدِّثُ المدير في نبرة جادة..

– من دخل هذه الغرفة؟! هل عبث أحدكم بأي شيء؟!

فأجاب المدير مرتبكًا وقطرات العرق احتشدت على جبينه..

– لا يا سيدي.. لم يدلف هذه الغرفة غيري وهذان الحارسان، وكل ما فعلناه أننا غطينا جثة القتيلة بملاءة وأبلغنا الشرطة على الفور..

كانت الغرفة تحتوي فراشًا واحدًا كبيرًا وبجواره لوحة فنية لطفل يبكي أسفلها كرسي فوتيه أزرق..أما ففي الأمام تقبع مرآة ذات إطار ذهبي ملطخة بالدم أيضًا، ومنضدة عليها تلفاز مسطح الشاشة.. وبجوارها باب مغلق بمزلاج يقود إلى الغرفة المجاورة.. لكنها ومع ذلك كانت غارقة في الفوضى كأنه اقتحمها ماموث أو جيش من التتار.. أما الجثة نفسها فكانت داخل الحمام مغطاة بملاءة ملوثة بالدم.. رفع الضابط يوسف الغطاء في حذر ليكتم شهقة كادت تفلت منه من هول ما رأى..

كانت القتيلة مسجاة داخل المغطس في بحر من الدماء..وجهها مُشوَّهًا وجسدها ممزقًا بالطعنات مُقطَّع الأوصال..

حدَّق يوسف إلى وجه مريم التي ألهبت خيال الجميع بجمالها وعيناه لا تصدقان.. لقد نجح المجرم باقتدار في أن يحولها إلى مسخ مرعب..

– هل هناك كاميرات في الفندق؟!

هكذا قال يوسف للمدير بنبرة صارمة فككت أوصاله على الفور، فأجاب متلعثمًا كقطٍّ مذعور:

– ن..نعم.. لكن ليست في كل الأماكن.. بالطبع نحن لسنا فندق درجة عاشرة حتى نضع كاميرات في غرف العملاء، ونتلصص على خصوصياتهم..

فحدَّجه يوسف بنظرة مخيفة ولهب الغضب يتراقص في عينه، وقال ثائرًا:

– هل تريد أن تخبرني أن في هذا الفندق الطويل العريض لا توجد كاميرا واحدة؟!

– ل.. لا.. بالطبع.. توجد كاميرا داخل المصعد، وكاميرا عند مدخل الممر، وكاميرات أخرى ككاميرا البوابة والردهة الرئيسية والجراج.. إلخ..

– حسنًا.. أريد هذه التسجيلات لديَّ الآن.. بالإضافة إلى لائحة بأسماء العاملين والزوار الموجدين بالفندق.. هيا.. انصرف الآن ونفذ الأمر..

غادرَ المدير على الفور مُرتعدًا مُنكّس الرأس كعصفور مُبتّلٌ يرتجف هلعًا..

كانت القوة الأمنية قد طوقت الغرفة بأشرطة حتى لا يتمكن أحدٌ من تشويه الأدلة..بينما الفريق الجنائي مشغول بجمع الأدلة ورفع البصمات وتصوير مسرح الجريمة بدقة..أما الضابط الشاب فكان يذرع كل بوصة في الغرفة بخطوات متمهلة وهو ينفث دخان سيجارته في غيظ باحثًا عن أي دليل ذي شأن..حتى وجد نفسه في ركن الغرفة واقفًا أمام دائرة دموية..دائرة دموية تقبع داخلها أطراف الجثة المبتورة..فجثا على ركبتيه مَشدوهًا وهو يُقلّبُ هذه الأشلاء بعينين جاحظتين..حتى لمح اسمًا مكتوبًا بالدم بخط جذاب كأنه توقيع فنان مُفتَتِن بعمله..اسم ألقى الرعب في قلبه وجعله يشعر بانقباض في أحشائه..

زارا

***

2

أسود.. أبيض

(1)

أنجبتني أمي في الجنوب الوحشي..

وأنا أسود اللون، ولكن آه! روحي بيضاء..

أبيض كالملاك، هو الطفل الإنجليزي..

ولكني أسود وكأني قد حُرمت النور.

من قصيدة "الفتى الأسود الصغير" لوليام بليك

***

مضى "إدريس" بخطوات متثاقلة تسفعه شمس الظهيرة القاسية يحمل حقيبة يد ضخمة وهو يمارس مهمته في بيع بعض البضائع الزهيدة في شارع 9 بالمقطم..كان شديد النحولة كأنه يعاني مرضًا عضالًا.. طويل كنخلة باسقة.. أسود البشرة ذو أنف أفطس وشفتين غليظتين وعينين جاحظتين تكادان تفلتان من محجريهما..

"هونجا بونجا".. "ولا يا سمارة".. "زنجي قذر"..

كان هذا نزرًا يسيرًا من الكلمات القاسية التي تتردد على مسامع إدريس.. حتى حفظها عن ظهر قلب.. يسمعها في كل مكان.. في الشارع.. عندما يستقل الحافلة.. عندما يصعد إلى إحدى البنايات ليبيع أحدٌ بضاعته.. حتى مرة قالها له صبي عندما خرج من المسجد..

العنصرية البغيضة تحاصره في كل مكان.. كأنه وُلد واختار لونه واستحق العقاب الأبدي بسببه.. بالتأكيد عندما انتقل إلى مصر لم يتوقع هذا المآل.. لكن اختياراته كانت محدودة.. لو استقلّ آلة الزمن وعاد إلى الماضي لاختار تقريبًا المصير نفسه..

فقد نجح منذ عشر سنوات من الهروب من جحيم دارفور بصعوبةٍ بعد مغامرات عصيبة..فانتقل إلى الخرطوم.. لكن السُلطات السودانية النظامية لم تتركه وشأنه، بل تسلت باعتقاله عدة مرات وتعذيبه في سجونهم الرهيبة المدعاة بـ"بيوت الأشباح"..كانت تهمته خائبة مثلهم.. فاتهموه بتسريب معلومات حيوية لحركات المعارضة وطباعة منشورات تحريضية وتوزيعها من خلال آلة النسخ اليتيمة التي ابتاعها.. حاول أن يخبرهم أنه لا يُجيد القراءة ولا الكتابة أصلًا.. لكنهم لم يصدقوه،وبدلًا من ذلك عذبوه بأشنع الوسائل..بالسياط.. بالصعق.. بالتعرية حتى تناوبوا على اغتصابه عدة مرات فأصابته لوثة عقلية واحتُجز بعدها بإحدى المصحات النفسية..

حينها كان قد عزم أمره..إما أن يتخلص من حياته وينتحر أو يهرب من هذا الجحيم بأي طريقة مهما يكن الثمن.. حاول أن يقطع شرايينه ذات مرة.. لكنهم أنقذوه في اللحظة الأخيرة..فصرخ بحرقة..

– ماذا تنقذونني؟ أريد أن أموت.. أريد أن أموووووووووت.

إلى أن تدخل ابن عم له ووعده بمساعدته على الهرب مقابل أن يتنازل له عن البيت المتهالك الذي ورثه عن أبيه.. فوافق على الفور دون نقاش..

بالفعل بعدها بأسبوع كان في القاهرة في ميدان رمسيس الشهير.. ليستقلَّ سيارة أجرة إلى مدينة 6 أكتوبر حيث يقع مقر مفوضية اللاجئين..

هناك روى كل ما حدث فصدَّقوه وتعاطفوا معه ووعدوه بالمساعدة وخصصوا له مبلغًا زهيدًا كمعونة.. ثلاثمائة جنيه تقريبًا.. ظن في البداية أنه قد تخلَّص من حظِّه السيئ للأبد عندما حَلَّ في مصر.. لكن اتضح فيما بعد كيف كان مخطئًا.

نجح بصعوبة في تأجير إحدى الغرف على سطح بناية عشوائية حقيرة في حي عين شمس.. لكن المشكلة التي بدأت تلوح له أن هذه الجنيهات المعدودة لا تكفيه.. ضاقت به السُّبل ذرعًا وهو يبحث عن عمل.. كما أن حالته الصحية أصابها السوء.. ففقد الكثير من الوزن حتى صار نحيلًا مثل عود الكبريت.. كان محمومًا طيلة ليالٍ متتابعة.. يتصبَّب عرقًا غزيرًا في الليل كالشلالات.. ثم بدأ يسعل دمًا.. سعلَ دمًا بشدة حتى شعر أنه على وشك أن يبصق روحه ذاتها في أي وقت..

بعدها تم احتجازه في إحدي المستشفيات الحكومية بعد إجراءات معقدة..حيث تم تشخيصه بإصابته بمرض درن الرئة واحتياجه إلى كورس علاجي يمتدُّ إلى 9 أشهر على الأقل،وكأنه كان يحتاج إلى هذه العِلَّة أيضًا.. كربٌ جديد يُضاف إلى معاناته..

كان يبتاع الأدوية بمشقة وقد ساعده بعض أهل الخير فتصدقوا عليه ببعض الجنيهات..

مضت الأشهر بطيئة وهو يتلقى العلاج بغير انتظام.. حالته تسوء وبدنه يزداد هزاله.. مع مرور الوقت أطلت القاهرة بوجهها القبيح.. بلدة عنصرية تمتهن الإنسان وتحتقر كل من لا ينتمي لها.. ظَلَّ هذا المشهد لا يُبارح رأسه فترة كبيرة.. يتكرر في مخيلته كالكابوس..

عندما رأى بعض الشباب الوقحين يسخرون من سيدة إفريقية ويتحرشون بجسدها ويسبونها بأقذع الألفاظ.. ثم تطور الأمر إلى اشتباك عندما حاولت أن تدفع أذاهم عن نفسها.. الأبشع أنها كانت حُبلى.. فتدخل لإبعادهم عنها لكن جسده خذله فضربوه معها أيضًا.. كالوا له اللكمات والركلات حتى هوى على الأرض مهزومًا تغمره دماؤه فاختلط مذاق الدماء بالتراب.. ثم فروا دون عقاب..

وقتها قال إن المتحرشين والعنصريين موجودون في كل بقعة في الأرض.. لكنه تيقَّن من خطئه وأن الأمر أكبر من مجموعة تافهة من الشباب، وأنه قد ينطوي على سياسة دولة بأسرها.. تيقَّن من ذلك عندما شاهد إخوته السودانيين يتساقطون كورق الشجر أمام رصاص قوات الشرطة المصرية في اعتصام "مصطفى محمود" الشهير عام 2005..

بعدها حسم قراره بالهجرة مرة أخرى.. يجب أن يهرب بما تبقى له من جسده وروحه من هذا البلد الملعون.. يجب أن يفرَّ إلى أي بقعة.. أي بقعة.. حتى لو كانت..

إسرائيل.

– حسنًا.. يمكنني أن أساعدك على دخول إسرائيل.. لكن الثمن باهظ بعض الشيء.. لا أعرف، هل بوسعك تحمله أم لا؟!

هكذا أخبره أحد البدو في سيناء المشتهرين بهذا النوع من العمليات.. فأقسم له إدريس إنه لا يملك أي شيء.. وأن ألف جنيه هي كل ما لديه وما نجح في توفيره بصعوبة من أجل هذه الرحلة.. لكن البدوي مَطَّ شفتيه في أسًى وأخبره وهو يهز رأسه:

– لا.. أنا لستُ مؤسسة خيرية.. قلت لك الثمن أغلى من هذا كثيرًا.. ومع ذلك فهو ليس بهذا القدر من الصعوبة كما تتصور..

ثم أخبره وهو يشير إلى جانبيه لاعقًا شفتيه في نَهمٍ:

– فقط..لو تمنحنا إحدى هذين اللوزتين..صدقني لن تخسر كثيرًا.. الجسد يستطيع أن يعمل بربع كلية أصلًا.. كلية واحدة فقط ستفتح لك باب الخروج.. كلية واحدة تمنحك الحرية..

فتجمَّد إدريس في مكانه مذهولًا..

ثم سأله وهو يحاول استيعاب الأمر:

– لكني عليل يا شيخ..كيف سيتم الأمر وأنا كنت مريضًا بالدرن من قبل؟!

فردَّ عليه البدوي في غلظة:

– لا شأن لك بهذه الأمور.. هذه الأمور يقدرها فقط الأطباء.. ما عليك إلا أن تذعن لي أو أن تعود من حيث أتيت وتلبث في عذابك إلى يوم الدين.

أطرقَ إدريس برأسه محزونًا.. لم يكن له خيار آخر.. فقَبِلَ الأمر على مضض..

وبالفعل تمت إجراء الجراحة له في أحد المراكز الجراحية في العريش، وعندما تعافى أوفى البدوي بوعده فقاده إلى مشارف الحدود مع مجموعة أخرى من الأفارقة الهاربين من خلال أحد الأنفاق ثم تركهم عند نقطة ما وهو يخبرهم أنه لا مجال له للاقتراب أكثر..

فلو اقترب احترق..يقصد أن يحترق بنيران حرس الحدود المصرية، وبالفعل نجحوا في التسلل وعبور الأسلاك الشائكة إلى الجانب الآخر من الحدود مع إسرائيل.. لكن قوات الاحتلال اكتشفتهم، وحاصرتهم.. فأقسم لهم إنهم لاجئون أفارقة بؤساء فروا إلى الجنة الصهيونية طمعًا في كسب القوت والحياة الكريمة.. لكنهم تعاملوا معهم بقسوة وغلظة، وألقوا بهم في المعتقلات مع سجناء حماس والجهاد وحركات المقاومة الأخرى حيث أجبروهم على الأعمال

الشاقة في المزارع الخاصة بالسجون دون أي أجر..إلى أن أفرجوا عنه بعد 6 أشهر ضمن برنامج الإفراج المشروط، فوظفوه بإحدى الفنادق بحيفا التابعة للجيش الإسرائيلي.. حيث لاقى هناك معاملة أسوأ من السجن.. فوزعوا عليه التُّهم.. تارة عربي إرهابي وتارة أخرى زنجي لص فعانى العنصرية ضعفين..فخشيَ على حياته أو أن يعتقله هؤلاء الأوغاد ظلمًا وعدوانًا في إحدى نوباتهم الجنونية فعزم على العودة إلى السودان مرة أخرى..ربما تكون الأمور قد تغيرت وغفل عنه الظالمون..

فعاد إلى مصر مرة أخرى على نية أن يعبر منها إلى السودان..

فأرسل إلى ابن عمه رسالة يستطلع عن الأوضاع الأمنية.. الذي حذره من العودة بدوره وأخبره أن السلطات لا تزال تذكره وتسأله عنه بين الفينة والأخرى..فاستقر على العمل داخل مصر وتوفير الأموال قدر المستطاع حتى يفر إلى إيطاليا أو اليونان بحرًا..

وما زاده أملًا موافقة أحد التجار في شارع عبد العزيز المعروفين بتجار "الشنطة" على العمل معه بعدما وثق به وتيقَّن من أمانته.. فأصبح كالطير يستيقظ في الصباح الباكر كل يوم ثم يعود إليه عند الغروب يقدم له الحصيلة اليومية مقابل جنيهات بائسة.. لكن لايهم.. هذا أفضل من البطالة..

كانت كل هذه الأفكار تجول في خاطر إدريس المسكين وهو يمر في إحدى الشوارع المهجورة داخل حي المقطم..حتى توقف بغتة حينما هتف عليه أحدهم.. فأجفل ونظر إلى الخلف..

كان هذا الغريب يعرف اسمه.

***

(2)

– أظنُّ أنني أعرف كيف ولج القاتل إلى غرفة الفنانة القتيلة.

هكذا قالها توفيق السباعي مدير فندق سيسليا بصوت متحشرج مذعور.. تمنى لوكان باستطاعته الكذب لكنهم سيكتشفون الأمر عاجلًا أو آجلًا.. والصدق في هذه المواقف الصعبة ربما هو الطريقة الوحيدة لينجو بنفسه..

– الآن أعِدْ علي مسامعي ما قلته مجددًا ياسيادة المدير!

قالها يوسف متحفزًا وقد مدَّ جذعه نحو المدير المتوتر كنمر متربص بفريسته.. بينما مدير الفندق أمامه يرتجف كضحية بائسة حتى بللت سيول العرق الناضحة من جسده ملابسه بالكامل.. فقال وهو يرخي رابطة عنقه بيد مرتعشة..

– صدقني يا سيادة الضابط..لقد اكتشفت هذه المصيبة صباح اليوم..

عندما قمت بفتح خزينة مكتبه وجدت أن مفتاح الغرف العمومي الخاص بي غير موجود.. قلبت الغرفة رأسًا على عقب.. لكني لم أعثر عليه..

الغريب أن هناك مئة ألف جنيه في ذات الخزينة لكنها لم تُمس.. وهذا يوضح الغرض الشرير للفاعل..لقد اقتحم خزانتي خصيصى من أجله وليس لهدف آخر..

كان يوسف يستجوب المدير في مكتبه الصغير في المديرية حيث تقبع ثلاثة أكواب من الشاي ملطخة ببقاياه بجانب منفضة ممتلئة عن آخرها بأعقاب السجائر بدت كجثث مكدسة في مقبرة جماعية..

فقال يوسف في سخرية مشوبة بالغيظ:

– إذن فقد فعل المجرم جريمته ودلف إلى غرفة القتيلة عن طريق سرقة مفتاح الفندق الرئيسي الذي في حوزة مدير الفندق المغفل.. هل تعرف لو تسربت مثل هذه المعلومة إلى الإعلام ماذا سيكون مصيرك أنت وفندقك الملعون؟! سيقولون إن سيسليا الفندق الفخم المهيب يديره مدير هاوٍ أحمق يسرق المتسللون مفتاحه السحري ويمرون على الغرف ليفعلوا بضيوفها كيفما شاؤوا..

لكن توفيق لم يرد.. فقط أحنى رأسه وحبات العرق تهطل من جبينه كالمطر شاعرًا بألمٍ يجتاح صدره يرتد إلى كتفه اليُسرى..

ليته أحضر قرص الداينترا.. هذه المقابلة لن تنتهي بسلام.. فلو لم يسجن سيُصاب على الأغلب بذبحة صدرية..

استأنف يوسف الكلام بنبرة غضب تصاعدية:

– لماذا لم تخبرنا من البداية؟! لماذا انتظرتَ ثلاثة أيام حتى تبوح لنا بهذه المعلومة الخطيرة؟! ومن الذي يضمن لي أنك لا تُخبئ معلومات أخرى؟! ومن الذي يضمن لي أنك غير مُتورِّط في الأمر من الأساس؟!

فتكلم المدير أخيرًا بصوت متلعثم مكسور:

– ص.. صدقني يا سيدي.. أ.. أنا كنتُ مسافرًا خارج البلاد في زيارة إلى باريس لإنهاء بعض الصفقات الخاصة بالفندق.. حتى عُدتُ في ليلة رأس السنة.. كانت المسؤليات مزدحمة حينها حتى أنني لم أطلع وقتها على الخزينة.. ثم اكتشفت الكارثة عندما حدثت الجريمة اللعينة.. كنتُ مذعورًا بشدة بالذات عندما رأيتُكم.. فاقتنيتُ مفتاح الغرفة الموجود لدى مكتب الاستقبال وذهبت معكم.

كانت أقصى أمنية لتوفيق الآن لو يتمكن من سرقة مسدس الضابط ويطلق النار على رأسه حتى ينتهي من هذا الحصار الرهيب..

حاول يوسف أن يحبس انفعالاته.. الآن فريسته تترنح.. يمكن أن ينال منه أي معلومة ربما تساعده في فكِّ اشتباك هذه القضية اللعينة..

– حسنًا.. سأتقمص دور الأمير ميشكين في رواية الأبله لديستوفسكي وسأصدقك.. هل بإمكانك أيها المدير العظيم أن تخبرني عدد النسخ المتاحة لكل غرفة في الفندق؟!

ابتلع توفيق ريقه بصعوبة وهو يمسح جبينه.. ثم قال:

– فندقنا الآن لا يستخدم إلا الكروت الممغنطة.. توجد نسخة إضافية في مكتب الاستقبال، ونسخة أخرى مع مشرفة النظافة في الأدوار.. ونسختي العمومية الرئيسية التي يمكن أن تفتح هي غرفة في الفندق المسماة ب Grand hotel master card

نَهَضَ يوسف من مقعده ثم جلس على مقعد بمواجهة فريسته البائسة يحدجه بنظرات نارية ثم سأله وهو يفرك يده:

– حسنًا.. هل تتشكك في شخص معين؟! أقصد من تردد على غرفتك في الفترة الأخيرة؟! هل توجد كاميرا مراقبة مثلًا؟!

فأشاح توفيق برأسه ببطء نافيًا:

– لا.. أخبرت سيادتك أنني كنتُ مسافر للخارج، ومن ثم من الظلم أن أتهم أحدهم لأن غرفتي كانت مقفلة ووحدي مَن يملك مفتاحها، وللأسف لا توجد كاميرا داخل غرفتي.. أقر أنه خطئي.

فرفع يوسف حاجبه الأيمن وقال متهكمًا:

– إذن فلا يوجد خيط يقودنا للقاتل..أظننا نتعامل مع اللهو الخفي.. يسرق مفتاح المدير في غيابه..يقتحم غرفة القتيلة ولا تسجله كاميرات المراقبة، ويقتلها ويرحل في سلام..

أظن أنني أعرف الآن من القاتل.. ربما بعد جلستي معك أذهب إلى أحد الدجالين حتى يستخدم أحد الجن المسخرين لديه لكشف هوية القتيل لأنه بهذه المواصفات يستحيل يكون من عالمنا البشري.

ثم ضغط زر أمامه ونادى بصوتٍ صارم:

– تعالَ يا عسكري..أستاذ توفيق سيبقى قليلًا في ضيافتنا حتى نساعده قليلًا على التذكر.

لكن فور أن انتهى من كلماته تلك دخل أحد الضباط يحمل ملفًّا صغيرًا.. فأشار إليه يوسف بالدخول.. ثم سأله بنغمة جافة:

– ماذا الذي تحمله يا محمد؟!

فأجاب في خشوع:

– هذا هو التقرير الشرعي المبدئي لفحص جثة القتيلة..

فالتقطه يوسف ثم لوَّح له بالخروج وبدأت عيناه في القراءة..

" القتيلة بيضاء البشرة، متوسطة الطول، شعرها أسود، ذات عينين بنيتين وأسنان مُهشَّمة.. حجاها سميكان موشومان.. أنفها منسق نتيجة عملية تجميل.. شفتاها متضخمتان إثر

حقنها بالكولاجين ومشقوقة إلى الأذن.. أيضًا تضع خصلات من الشعر المستعار لزيادة كثافة شعرها..كما أن نهديها بارزان ممتلئان بالسيلكون.. أما الجسد فعارٍ تمامًا ومبتور من الوسط إلى نصفين..كما أن الأطراف أيضًا مفصولة بواسطة آلة حادة غالبًا منشار كهربي..وعلى الذراع اليُسرى يوجد وشم يحمل صورة كيوبيد ومكتوب عليه: love forever"

بعدما فرغ يوسف من القراءة شرد في السقف وهو يتمتم لنفسه:

– هذا المجرم قتلها ومثّل بجثها كأسد متوحش يمثل بإحدى الغزلان.. مستحيل أن يكون بشريًا..

وبالرغم أن القتيلة لم تترك عملية تجميل واحدة لم تفعلها.. لكنه لم يستطع أن يضحك.. كان يراوده خاطر سيئ بأن هناك أمرًا شريرًا سيحدث مرة أخرى..

وقد كان حدسه صائبًا.

***

(3)

فتح إدريس عينيه بمشقة بالغة..كأنهما ترفضان أن تطيع أوامره.. شعور هائل بالمقاومة..لكنه صمَّم حتى استجابتا في النهاية لنبضات مُخِّه..في البداية لم يَرَ شيئا..فثمة سُحب ضبابية تُعمي بَصَرَه..ثم مرت ثوانٍ حتى اتضحت الرؤية رويدًا رويدًا وأبصرَ كل شيء.. ليجد أن عالمه تغيَّر للأبد.. أول ماوقع عليه بصره كان سقف الغرفة المرتفع.. سقف شاهق الارتفاع يصل إلى خمسة أمتار حالته مُزرية ويتدلى منه بسلك طويل مصباح أصفر مريض..

أما هو فكان مُعلقًا في الهواء عاريًا تمامًا سوى من خرقة بيضاء تغطي عورته، ووسطه يلتف حوله جنزير يوشك أن يهشم ضلوعه.. بل يسحقها سحقًا.. موصل إلى بكرة في أعلى الضلع الرأسي لعمود حديدي على هيئة زاوية قائمة مثبت في الأرض كالمشنقة.. فحاول أن يُحرِّك يديه لكنها كانت موثوقة خلف ظهره..

اجتاحت جيوش الخوف أراضيه.. فخفق قلبه بعنف حتى كاد يشقُّ صدره..جالونات من الأدرينالين تعتصره اعتصارًا.. لذا أخذ يرفس كحيوان مذعور.. فريسة تحاول أن تفلت من ذبح جزار.. لكن كل ذلك دون فائدة.

صَرَخَ بعنفٍ.. صرخ من أعمق جزء في روحه.. بكل ذرة في كيانه.. صرخة حملت معه كل خوفه ومعاناته طيلة حياته.. لكن لم يستجب له أحد.. فقط صدى صرخته هي من أجابته فزادته فزعًا على فزع.. تبًّا.. كيف جاء إلى هنا؟! ومَن فعل به هذا؟! لا يذكر شيئًا.. عقله مشوش تمامًا.. آخر ما يذكره عندما كان يسير في شارع 9 في المقطم يحمل بضاعته شاردًا في أحواله حتى..

اتسعت عيناه وقتها رعبًا حينما تذكر..نعم..الآن يتذكر بالفعل.. آخر شيء حدث كان الهاتف، والرجل الغريب..

سرت في جسده قشعريرة باردة أخرى هزَّت كل كيانه.. فكرة مرعبة نسفت آخر ما تبقّى من ثباته الانفعالي..سيكون أكثر شخص سيء الحظ على الأرض لو كانت هذه عصابة أخرى لسرقة الأعضاء كما كان يسمع..

وبينما هذه الخواطر المفزعة تجوس داخل عقله دوت مرة واحدة موسيقى صاخبة.. سيمفونية "ركوب الفالكيري" الشهيرة لفاجنر..

فالتفت إلى مصدرها على يمينه ليرى شبحًا يتقدم نحوه بخطوات واثقة مخيفة كأنه ظهر من العدم، وبينما الشبح يتقدم نحوه بتؤدة بدأت ملامحه في الاتضاح.. ملامح فجَّرت داخله كل منابع الخوف والفزع.. كان الغريب يرتدي قناعًا فينيسيًّا آخر أبيض اللون مصنوعًا من القماش المشمع.. مرصعًا بزخارف ذهبية كفروع الأشجار لكنه يختلف عن السابق بأن له فتحة للفم ذهبية أيضًا، قناع مخيف يُدعى "فولتوت" اعتاد أن يرتديه النبلاء في الماضي..

بينما جسده يرفل في عباءة بيضاء تتطاير من ورائه أما رأسه فيغطيها بقبعة بيضاء ثلاثية الزوايا أيضًا،ورغم البياض الذي يغلف مظهره فبدا قاسيًا مخيفًا.. كأن العنصرية البيضاء تجسَّدت فيه.. ملاك الموت الأبيض جاء يقتصُّ من أسود بائس.. كان يمسك في يده سوطًا طويلًا في نهاية مسامير يحركه في الهواء باستهتار كأنه يتجهز لاستعراض في سيرك.. فلما اقترب بشدة من إدريس زادت حركة الأخير هلعًا.. ثم قال بصوت يائس مذعور:

– أرجوووووووك.. أطلق سراحي يا سيدي.. أستحلفُك بأغلى ما لديك..صدقني لا يوجد شيء يمكن أن تكسبه مني..أنا رجل مسكين.. فحتى كليتي أخذوها مني في الماضي.

أطلق زارا ضحكة مخيفة مستمتعًا بأمارات الخوف على فريسته.. ثم أشار إلى جانب إدريس الأيمن بسوطه:

– هاهاها.. هل تظن هذا فعلًا يا أحمق؟! وما الذي يوجد في جانبك الأيمن يا جاهل؟! علي حد علمي أظن أن كبدك سليم.. هاهاهاها..

فتوسل إدريس بصوت منتحب والدموع تبلل وجهه:

– أرجوك يا سيدي ارحمني.. ارأف بحال أفريقي مسكين.. صدقني سأكون خادمًا يصدع لكل أوامرك.. عبدًا مُطيعًا لك طيلة عمري.. فقط ارحمني..

مشى زارا بخطوات بطيئة وهو يدور حول ضحيته يهز سوطه في يديه ثم قال متهكمًا:

– هاهاهاها.. أرحمُك! ألم تجد في قاموسك كلمة أخرى تستعطفني بها سوى هذه الكلمة البائسة؟! للأسف لقد طلبت الرقم الخاطئ يا أبله.. صدقني أنا أكثر الرجال رحمة بك، لكن رحمتي لها معنى آخر لا يفقههُ أمثالُك.. رحمة ظاهرها القسوة لكنها عين الحكمة.. صدقني لم يُضيِّعك شيء إلا سعيك المريض نحو الرحمة والعدل وهذه المعاني الجوفاء في عالم مريض غادر، والآن أخبرني.. لو كنت فظًا قاسيًا هل كنت ستؤول إلى مثل هذا المصير؟!

هل لو كنت لصًّا أو قاتلًا لأصبحت في مثل هذا الوضع؟! بالطبع لا.. كانوا سيخضعون لك ويقدمون لك القرابين.. لكنك فضلت الذل والانكسار.. فضلت أن تعيش طيلة حياتك عبدًا آبقًا..

ثم همس في أذنه متظاهرًا بالأسى..

– لقد أرهقتك حشرات المجتمع السامة يا صديقي فخدشت جلدك حتى امتصت كل دمائك.. أما أنت فكنت طيلة حياتك مستسلمًا خاضعًا لهم.. لذا وجب تطهيرك..

ثم تقهقر زارا بضع خطوات للوراء مُلوّحًا بسوطه في الهواء.. وبدأ يجلد ضحيته بعنف على بطنه بينما إدريس يبكي ويجأر بقوة..

– دعني أعيييش.. دعني أعيييييش.. ارحمنننننني..

فتوقف زارا لوهلة مقتربا من فريسته المنهارة.. ثم صاح ساخرا..

– هاهاهاها.. تعيييييش؟! أخبرني يا مغفل، لماذا تريد أن تعيش؟! ماذا ستجني البشرية من حياتك؟! ماذا ستجني أنت نفسك سوى مزيد من الشقاء والعذاب؟! هل تريد أن يسجنوك مجددًا؟! يطاردونك ويحتقرونك مرة أخرى؟! هل تنتشي عندما يبصقون على وجهك ويسخرون من لونك؟! هل تستمتع عندما يغتصبونك ويسبونك بأقذع الألفاظ؟! ألهذا الحد أنت بائس؟ أخبرني بحق السماء لماذا تريد أن تعيش؟ لماذا تولي كل هذه الأهمية للحياة؟! إنه خير لك أن تموت الآن عن أن تعيش دخيلًا صعلوكًا طيلة عمرك..

لكنك للأسف.. ضللت الطريق فأدمنت العبودية والظلم.. اشتهيتَ حياة دونية سافلة، وتلك خطيئة أخرى..

ثم تابع الجلد بضربات متلاحقة كالمجنون، وهو ينشد كلمات مخيفة بينما إدريس يبكي ويصرخ حتى بُح صوته:

– لا توجد مساواة في هذا العالم.. لا بد أن يأخذ العدل مجراه.. لا بد من إنزال العقاب.. القوي يسحق الضعيف.. الأعلى يدفع الأدنى، والظلام يُبيد النور.

ثم كَفَّ زارا فجأة عن الضرب، وهو يلهث من شدة غضبه بينما أصوات نحيب إدريس مستمرة تصاحبها الدماء التي تتدفق من كل جزء في جسده، ليقترب من حافة العمود ويضغط على زر فيه وهو يتمتم:

– ما أسعدك أيها الجرذ البائس! لقد عشتَ حياة تعيسة حقًا لكن جاء موتك ليخلد ذكراك للأبد.. مبارك لك أيها المسكين.. فقد اختارك زارا لتكون موضوع لوحته المجيدة القادمة.

ليصدح بعدها الصوت الميكانيكي المميز للتروس وهي تتحرك.. لتدور معه البكرة ويضغط الجنزير أكثر على جسد إدريس رافعًا إياه ساحقًا ضلوعه بلا رحمة.. حتى بلغت صرخات إدريس مرة أخرى العنان مصحوبة بأصوات تهشيم العظام..

ليصيح زارا بصوت عميق مخيفٍ آت من أعماق الجحيم نفسه..

– الآاااااااان.. مُت..

وفي أقل من دقيقة فعلًا كفَّ جسد إدريس عن الحركة.. للأبد.

***

(4)

كان كريم جالسا أمام الحاسوب فوق الثماني الساعات جامدًا تمامًا كالمومياء.. فقط ما يميزه عن الأحياء حركات عينه وضغطات إصبعه الرتيبة على الفأرة.. أدمنَ الفيس بوك حتى النخاع.. أصبح يجري منه مجرى الدم.. حتى أن الساعات التي يكون فيها بعيدًا عنه يحاول تقليد وجه "الإيموشنات" الموجودة داخله.. لدرجة أنه فكر لحظة في أن يذهب لمصحة يُعالَج فيها من آثار إدمانه.. لكن كلما راودته هذه الفكرة ضحك في نفسه قائلًا:

– إنه ربما الطبيب ذاته يعاني الإدمان نفسه.. لقد فعل مارك زوكريبرج فعلته ومضى..ابتلانا باختراعه وحقق من ورائه الملايين من الأموال وتركنا أسرى للأبد داخل عالمه الأزرق الافتراضي.

تراصت الأكواب والأقداح بجواره مُشكِّلةً معرضًا من الأكواب الفارغة..كوب شاي يتبع بقدح قهوة..قدح قهوة يتبع بكوب شاي.. فيما هو لا يزال ملتصقًا بمقعده كالتماثيل.. يبحث طيلة الوقت عن الحسناوات..بعض الأحيان يحاول مغازلتهن وأحيانًا أخرى تخونه جرأته.. لدرجة أنه عندما تضغط إحداهن على زر الإعجاب بمنشور له يخفق قلبه بشدة،ويتراقص كيوبيد بجواره مطلقًا المزيد من السهام.. ليذهب على الفور إلى صفحتها ويبادلها الإعجاب..

ربما الأمر مضحك.. لكن في كل مرة يحدث هذا ينظر للأمر عن أنه حالة إعجاب أو بداية قصة حب جديدة..لذا فقد امتلك عشرات قصص الحب الوهمية غير المكتملة داخل هذا العالم.. ملاحظة أخرى لاحظها بمرور الوقت، وهو أنه صار شديد الاهتمام بكمية الإعجابات التي يحوزها عن منشوراته كأنها أموال تضاف إلى رصيده في البنك.. فالفيس بوك أصبح أقصر طريق للشهرة دون أن تحقق إنجازًا حقيقيًا.. لذا فقد دأب على كتابة الكثير من المنشورات المتظاهرة بالعمق وابتذال عشرات النكات السخيفة عسى أن تُصيب إحداها.

وبينما كان مشغولًا بمحادثة إحدى الرقيقات لاحظ مقطعًا مرئيًا نشره معظم أصدقائه حصد آلاف الإعجابات، وعندما فتحه حبس أنفاسه من الهول.. كان فيديو جديد لسفاح يُدعى ..

زارا

ظهر في الكادر زارا وهو يرتدي عباءته البيضاء الفضفاضة وقناعه الفولتوت الأبيض القاسي، فبدا مثل جلادي العصور الوسطي، داخل الغرفة الواسعة ذات الجدران البالية، بينما الكاميرا مُثبتة بالأسفل لتكون زاوية التصوير منخفضة، فظهر أكبر من حجمه الطبيعي.. وأكثر قوة ورهبة.. حتى بدأ يتكلم بصوت ساخر مخيف وهو يشيح بيديه..

- مرحبًا بكم للمرة الثالثة.. في البداية أودُّ أن أطلعكم على سر صغير.. لم أكره في حياتي قط قدر العناكب.. فهي كائنات مزعجة جبانة تقتات على الحشرات وتترعرع في البيئات القذرة كما أنها مخادعة.. فعلى الرغم من تظاهرها بالضعف فبعضًا منها قادر على قتلك بسمه الزعاف في خلال دقائق، وإني أقصد بالعناكب كُهَّان المساواة.. النشطاء المنافقين..

هؤلاء المضللين المبشرين بهذه الفضيلة الواهية.. المساواة، ورغم أنهم طيلة الوقت يصدعوننا بصيحاتهم المعذبة وكلامهم المعسول عن الإنسانية والعدالة والمساواة والبلا بلا بلا.. لكن صدقوني لم أصادف قط أشخاصًا في قدر قُبحهم وخِداعهم.. يقولون إنهم ضد التمييز العنصري.. لكنهم في الواقع ليسوا إلا مستودعًا للانتقام.. فلا يوجد أحد يشعل الحرائق مثلهم لأنهم يضمرون أقبح المشاعر ويبيتون أشرس النيات، ولو حكموا فلن يستنكفوا عن اقتراف أعنف المذابح من أجل نشر تعاليهم المقدسة الكاذبة.. حتى ضد بني جلدتهم

أنفسهم.. مارتن لوثر كينج.. مالكوم إكس.. غاندي.. مانديلا.. جيفارا.. كلها أسماء مختلفة لعناكب بشعة، وكل من جاء بعدهم يسير على ذات الدرب الضال..

ثم سكتَ لحظة كأنه يسترد أنفاسه واستأنف الحديث..

– إما أن تكون لغمًا متفجرًا تحت أقدام عدوك وإما أن تخرس.. هذه ليست جملتي بل جملة "أنجيلا ديفيز" المناضلة الزنجية إحدى عناكبهم الشهيرة، وأظنها كانت صريحة وصادقة في هذه الجملة التي تروق لي كثيرًا.. فلا ينبغي أن يتساوى الناس.. الأقوى فقط يبقى.. هكذا علمتني العدالة، وهكذا كان دأب الطبيعة منذ ملايين السنين.. فالحياة ديدنها التدافُع.. فالحياة تدعو إلى الارتقاء، ولن نرتقي إلى أعالي الذُّرى ولن نبلغ الإنسان المتفوق إلا بالتفوق على ذواتنا وسحق كل ما يعوقنا.

ثم استطرد بصوت أعلى وأكثر صرامة:

– إن لوحاتِيَ الحية التي أُقدِّمها لكم هي صحائفي المقدسة التي أنذر بها.. وإنه يؤسفني أن أراكم تتخبطون كالممسوسين فلا تقيمون لوعيدي وزنًا.. لكني لن أتوقف عن ضربكم على رؤوسكم وإرسال صواعقي عليكم حتى تفيقوا وتخضعوا لي.. حتى لو كان الثمن المزيد من الدماء.

ثم مشى خطوات إلى اليمين ليزيح ملاءة بيضاء عن جسم مجهول في حركة استعراضية ليصيح بصوت مفعم بالجنون:

– تاتاتاتا!!!!!!!!!!!!!، والآن يسعدني أن أهدي إليكم لوحتي الجديدة.. محاكاة للوحة ويليام بليك الرائعة.. زنجي يُعدم حيًّا..

A negro hung alive

كان الجسم المجهول هو إدريس معلقًا في الهواء بالسلاسل الحديدية الموصولة إلى المشنقة.. جاحظ العينين، والدماء تسيل منه في مشهد مفزع..

ثم أطلق زارا ضحكة مخيفة مازحًا:

– هاهاهاها.. صحيح أحب أن أعتذر للمرحوم الفنان القدير لأن الزنجي الموجود في لوحته كان مفتول العضلات بينما نسختي أنا نحيلة مثيرة للشفقة كالسحالي.. لكنها رؤيتي الإخراجية الخاصة ولا أحد له دخل بها..

ثم سكت مرة أخرى وعندما تكلم غير نبرته مائة وثمانين درجة فانفجر كبركان ثائر وهو يلوح بسبابته اليمني جهة الكاميرا بينما يده اليسري تعتصر عنق إدريس الميت.

– أيها العناكب الضالّة..يا كهان المساواة.. فلتزعقوا كما شئتم.. ولتحشدوا كل قواكم في مواجهة العاصفة العاتية القادمة.. فقد نزل زارا إلي الميدان ولن يثنيه شيء حتى يركع له الجميع.. حتى لو اضطر أن يخمد أنفاسكم ويقتلع عظامكم.. فاحذروا.. ثم توقَّف البث.

3

حُكم قمبيز

(1)

8 يناير..

خَرَجَ يوسف من مبنى مديرية الأمن شاردًا تكسو وجهه أمارات اليأس والإحباط بعد أن تلقّى تقريعًا لا بأس به من رئيسه المباشر مدير مباحث العاصمة الذي تلقى هو بدوره دشًا ساخنًا من وزير الداخلية بسبب المهزلة التي تحدث على حد وصفه..

لقد أفلت الأمر من أيديهم.. فلم يعد ينحصر الأمر في مجرد جريمة مُفجعة حدثت لفنانة بل أصبحت سلسلة من الجرائم، الله وحده يعلم إلى ماذا ستنتهي في المستقبل.. هذا السفاح المخبول مصمم على أن يسخر منهم ويخرج لهم لسانه متحديًا.. فلم يكادوا يفيقون من صدمة الجريمة الأولى والتي فشلت تحرياتهم في أن تصل إلى أي شيء ذي

أهمية بخصوصها.. حتى حدثت الجريمة الثانية المفعمة بالعنصرية، والتي بعدها احتشد مئات اللاجئين الأفارقة عند مبنى المفوضية في السادس من أكتوبر، واعتصموا هناك يحملون لافتات يستنكرون فيها الجريمة، ويطالبون الأمن بسرعة التحرك والقبض على القاتل قبل أن يقتل مزيدًا من الزنوج، وفي أذهانهم يتردد اسم "جوزيف كريستوفر" سفاح الزنوج في الولايات المتحدة.. بينما البعض الآخر كان أكثر غضبًا فرفع لافتات أخرى يتهم الحكومة المصرية نفسها بالتقصير والعنصرية وازدراء اللاجئين.. فالأمر أصبح أكبر من مجرد جريمة قتل عادية، بل جرائم مثيرة تلهث وراءها وسائل الإعلام حتى تلقفتها الصحف العالمية بكل ترحاب..النيوزويك،التايمز، واشنطون بوست.. الجريمة صارت وجبتهم المفضلة.. حتى أنهم تفننوا في إطلاق الأسماء على السفاح الجديد..فمنهم من أطلق عليه اسم نبي الفوضى وآخرون رسول الموت..

شعر يوسف باختناق شديد.. كأن صدره ضيقًا حرجًا يصعَّد إلى السماء.. هو بحاجة إلى بعض الهواء النقي..حتى يستطيع التفكير بذهن صافٍ.. ربما ينطلق إلى كورنيش التحرير.. هناك يعرف كافيتريا يمكن أن يريح فيها أعصابه ويُعيد التفكير مجددًا.. توقف يوسف عن السير بغتة حينما رأى ابنته..بشعرها الطويل المرسل كسنابل القمح ووجهها الصغير وغمازتيها الرائعتين..

كانت ترتدي فستانًا أبيضًا مهترئًا وبعض الأشجار عالقة فيه.. شاحبة جدًّا ومبللة بالكامل.. وترتجف.. فأجفل.. واغرورقت عيناه بالدموع.. حاول أن يناديها.. لكنه في كامنه كان يدرك أنه واهم وأن ما يراه غير حقيقي..مستحيل.. ابنته ماتت منذ 6 أشهر.. ففرك عينيه وعندما فتحهما مرة أخرى كانت قد اختفت.. فاستمر في السير مُنكّس الرأس حتى وصل إلى سيارته الفولفو البيضاء.. ثم أخرج جهاز التشغيل عن بعد وضغط عليه فأخذت تضيء وتصرخ كالنائحة.. وعندما هَمَّ بركوبها لمح خلف ممسحة السيارة رسالة مغلقة.. فتصلَّب في مكانه ثم التقطها بحذر، وعندما فضَّ غلافها وقرأها كانت المفاجأة.

***

(2)

"ابحث عن حكم قمبيز"

زارا..

أجفل يوسف في البداية عندما قرأ الرسالة.. فقبض على مسدسه بحذر، وهو يتلفت يمينًا ويسارًا، ولما اطمأنّ أنه وحيد في الساحة.. مسح بيده على وجهه وهو مذهول..

هذا السفاح يعلم إذن أنه مسئول عن ملف هذه القضية، وليس هذا فحسب.. بل إنه حتى يتحداه ويرسل إليه رسالة.. لكن بدت الكلمات غامضة جدًا له.. ماذا يريد أن يخبره هذه المختل؟! هل هذه شفرة ما أو رسالة تحذير من جريمته المقبلة؟!

كان قلب يوسف ينبض بقوة بفعل الأدرينالين من فرط الإثارة.. لا ضرر من المحاولة.. فصعدَ إلى مكتبه مرة أخرى، وولج إلى حاسوبه

وهو ينفث سيجارة جديدة في توتر ثم دون في محرك البحث هذه الكلمات وضغط زر بحث، وانتظر..

لكن النتائج جاءت مخيبة للآمال..

قمبيز الثاني.. ويكيبيديا..

من أغرب القصص المصرية.. جيش قمبيز المفقود في الصحراء الغربية..

سياسة الملك قمبيز في حكم مصر في الأسرة 27 ..

فريق تنقيب نفطي يفتح الباب أمام فك لغز اختفاء جيش قمبيز..

الغزو الفارسي لمصر..

نهاية مؤسفة للفرعون المصري أبسماتيك الثالث على يد قمبيز..

فدخل إلى موقع تلو الآخر لكنه لم يصل إلى شيء ذي أهمية باستثناء سرد لوقائع تاريخية..فالمعلومات تُروى عن قمبيز الثاني.. ملك الأخمينيين الفُرس ابن الشاه الإيراني قورش العظيم، أول زرادشتي يحكم مصر، والذي استولى عليها سنة 525ق.م، وحكمها مدة أربعة سنوات حتى أنه أطلق على نفسه ألقابًا مصرية كدأب

الغزاة من أول الهكسوس مرورًا بالإسكندر المقدوني انتهاءً بنابليون بونابرت..

فسمى نفسه..ملك الشمال والجنوب.. ابن رع.. وحورس موحد الأرضين..

– زرادشت مرة أخرى..

هكذا تمتم يوسف لنفسه مغتاظًا..

ثم استكملت عينه القراءة السريعة عسى أن يعثر على شيء يفيده..تؤكد الروايات أيضًا أنه كان مختل العقل، مجردًا من الإحساس فقتل أخاه "سمردس" لخشيته من استيلائه على عرشه..كما قتل شقيقته أيضًا بعد أن تزوجها مخالفًا لكل الشرائع مستندًا على قول أحد القضاة الفاسدين.. "لا توجد شريعة تسمح للأخ أن يتزوج أخته، ولكنه توجد شريعة تسمح للملك أن يفعل كل ما يريد".كما أنه قتل ابن صديقه "فرساب" أمام عينه في مقامرة بشعة.. وأودى بحياة كثير من النبلاء دون سبب..باختصار كان سفاحًا..بالضبط مثل رئيس كوريا الشمالية الحالي..

يقال أيضًا عنه إنه كان غريب الأطوار.. فمن الأسباب التي دفعته لغزو مصر رفض الملك أحمس الثاني طلبه ليد ابنته وإرساله لابنة الملك إبريس بدلًا منها..بخلاف أنه كان مهووسًا بوضع عدد هائل من القطط في مقدمة جيشه التى تهاجم الخصم بشراسة بأظفارها الحادة

وتطلق مواءها الذي كان يحسبه الجنود صوتًا من أصوات الشياطين، ويُدلِّل المؤرخون على دمويته بما فعله عندما نجح في اجتياح منف العاصمة حيث ارتكب هنا العديد من المذابح البشعة حتى أسر أبسماتيك الثالث فرعون مصر الجديد ثم قام بإعدامه لاحقًا في سوسا عاصمة الفرس واتخذ ابنته جارية وقتل ابنه.

كما أنه عبثَ بجثة خصمه اللدود أحمس الثاني فأخرجها من الضريح، وأمر بضربه بالعصي ونزع شعر رأسه وبدنه ثم أحرقه في النهاية لما فشل في إيذائه بسبب تحنيطه الجيد، وبعد أن استقر في مصر أرسل ثلاث حملات للخارج كلها باءت بالفشل الذريع..

الأولى إلى قرطاجة والثانية إلى نبتة "النوبة" حيث نفدت المؤن من الجنود، فأكلوا العشب، ثم أكلوا بعضهم بعضا.. أما الثالثة فكانت إلى "سيوة" انتقامًا من كهنة آمون الذين تنبؤوا بهزيمته فقرر معاقبتهم بهدم معابد آمون فوق رؤوسهم.. إلا أن هذا الجيش المشكل من قرابة 50 ألف جندي اختفى فجأة في بحر الرمال الأعظم في ظروف غامضة مما شحذ خيال الكثير من الكتاب وشكل لغزًا عظيمًا حيَّر كل الآثاريين والمؤرخين قرونًا عديدة..

غير أن وفاته جاءت مفاجئة حينما وردت إليه أنباء تنادي بادعاء "جوماتا" – أحد الكهنة المتعصبين للدين المجوسي القديم والداعي إلى القضاء على الزرداشتية دين الدولة الفارسية الرسمي– أنه "سمرديس" أخو قمبيز الذي قتله بقوله إنه نجا بإحدى المعجزات..

غير أن قمبيز لم ينجح في الانتقام لأنه لقيَ حتفه في طريق العودة في سوريا عام 522 متسممًا بجرح في فخذه من نصل سيفه عندما كان يتهيأ لركوب جواده بينما قال آخرون إنه انتحر..

عضَّ يوسف شفتيه يائسًا بعد أن فشل في العثور على معلومة ذات قيمة.. صار رأسه ينبض بشدة.. ربما في وقت آخر كان سيشعر بالإثارة بسبب هذا الكم من المعلومات المشوقة.. إلا أنه الآن يشعر بالضياع بسبب هذه الترهات التاريخية حتى أنه ودَّ وقتها لو قابَلَ هذا الرجل الغريب وطفق يلكم وجهه حتى الموت.. فأرخى جسده للوراء وطلب من الساعي كوب شاي آخر.. ثم أخذ يحدق إلى النافذة في شمس الظهيرة العالقة في كبد السماء..حتى سطعت في رأسه فكرة جديدة.. فضرب مكتبه ضرب قوية وهو يسب نفسه لأنه لم ترد في خاطره من قبل..

ثم ضغط متلهفًا كلمات جديدة في محرك البحث.. لتظهر له نتائج أخرى أذهلته بكل المقاييس..كانت هي بداية الحل.

***

(3)

– لماذا يطلق عليك البعض لقب الجزار؟!

كان هذا السؤال موجهًا من الصحفي الشاب إلى القاضي الشهير، الذي ابتسم متهكمًا كالضباع، ثم داعب شاربه وقال بصوته الأجش بنبرة واثقة:

– حسنًا، أنا لا تفتُّ في عضدي مثل هذه الألقاب الرخيصة، وكل الشائعات المغرضة التي يطلقها عليَّ خصومي من أرباب الإرهاب والجماعات المتشددة.. فإن كان العمل بصحيح القانون وتحقيق العدالة والحرص على مصلحة الوطن يستوجب مثل هذه الألقاب فأهلًا وسهلًا بها، وعلى هذا النحو فأنا سعيد بكوني جزار هؤلاء القتلة.

– لكن كثير من وسائل الإعلام تتهمك بالقسوة والتسرع في إصدار أحكام الإعدام.. ففي جعبتك حتى الآن أكثر من ثلاثمائة حكم

بالإعدام منهم مائة في قضية واحدة.. حتى أن البعض الآخر يتهمونك بتسييس القضاء وبتحولك إلى سوط تشريعي في يد السلطة.. لدرجة أن بعضهم يقارنك ببطرس غالي قاضي محكمة دنشواي..فما تعليقك؟!

اسمه داوود سيف الدين حرب.. قاضي الدائرة الثانية بمحكمة جنايات جنوب القاهرة المختصة بالإرهاب.. الذي حاز شهرته الواسعة بسبب صرامته وكثرة أحكام الإعدام التي أصدرها في القضايا التي نظر فيها..

هيئته وبنيانه الجسدي رسخت هذه الصورة المخيفة.. فهو ضخم الجسد يميل إلى الامتلاء.. ذو وجه مستطيل.. شعر أسود مصبوغ بعناية.. عينان جاحظتان حمراوان تكادان تفلتان من محجريهما.. حاجبان كثان.. أنف معقوف، وشفتان غليظتان متدلية.. يضاف عليهم شارب إنجليزي سميك مفتول لأعلي..

كان أقرب الشبه إلي ستالين الديكتاتور الروسي لذا فبعضهم أيضًا كان يسميه ستالين القضاء المصري..كما أنه بخلاف ذلك يحرص دائمًا على ارتداء عوينات سوداء داخل القاعات المغلقة مما أضفت المزيد من الرهبة والقسوة على ملامحه..

وضع القاضي بعضًا من التبغ في غليونه ثم نفثه في استمتاع كأنه لا يأبه بمحاوره.. بعدها أجاب في ثقة متناهية..

– أنا رجل وطني يا سيدي، ولا أخجل من التصريح بهذا وكوني شاركت كمواطن في الثورة المجيدة 30 يونيو بسبب بغضي حكم الجماعات الإسلامية و 6 إبليس والبرادعاوية وكل هؤلاء العملاء الذين أفسدوا البلد.. لكني بالرغم من هذا فعندما أدخل إلى هذه القاعة المقدسة أترك شخصيتي السياسية بالخارج وأحكم بعد التشاور مع المستشارين الأفاضل بأوراق التداعي التي تقدم إليّ وما اطمأنّ إليه ضميرنا ورسخ في وجداننا يقينًا أنه هو الحق، وبناء على هذا أحكم بما يتناسب مع جرم المتهم.. إعمالًا لقوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة"..

حينها لا يهمني عدد أو منصب المجرمين.. المهم إعمال العدالة.. وهنا أنا لا أستحي في تقرير أقصى العقوبات ما دام يستحقونها بأفعالهم الدنيئة وجرائمهم الخسيسة التي زينها لهم الشيطان.. فلا تاخذني بهم رأفة أو هوادة.. ما دام قد ثبت إزهاقهم أرواح الأبرياء..

فهذه الأحكام هي حصن للمجتمع وحماية من تكرار هذه الجرائم وسفك المزيد من الدماء..كما أنه في النهاية هذا الحكم مبدئي.. فهناك درجة أخرى من التقاضي في محكمة النقض يمكنهم أن يلجؤوا إليها ويبطلوا الحكم لو كان فاسدًا كما يدعون ..

من قسوته كان يقال عليه إنه لو مست وجهه ذبابة ربما حاكمها.. فالذي يقع في براثنه فهو ميت لا محالة ويكون محظوظًا لو حاز مؤبدًا..

هو يدّعي الحيادية.. لكن لا أحد يسمع المحادثات الهاتفية التي تأتيه من أشخاص ذوي نفوذ في أجهزة حساسة بالدولة يملون عليه بعض الأحكام ويؤجلون البعض الآخر، وهو هنا لا يعتبرها نوعًا من الإملاء.. فهم في النهاية تجمعهم سفينة الوطن المقدسة.. كما أنه في حقيقة الأمر مبدأ الفصل بين السطات أمر نظري وغير حقيقي في أي دولة في العالم.. هو موجود فقط في أدمغة المراهقين السياسيين والعملاء، وحتى الأموال التي أحيانًا يتلقاها من هذه الأجهزة يرى أنها تأمين مستحق على حياته.. فلو عمل في أي دولة عربية كمستشار لإحدى الشركات العملاقة سيحقق عشرات أضعافها.. بلا شك قلة أدب وبذاءة أن يطلق عليها رشاوى..

أمر آخر أيضًا.. فهذه العلاقات مهمة بالذات عندما يبلغ سن التقاعد، ومن يدري ربما يصبح وزيرًا للقضاء في فترة ما أو حتى نائب في البرلمان.. بالذات أنه لطالما عاون النظام في الانتخابات البرلمانية، وفي هذه النقطة تحديدًا فهو يطبق مبدأ ستالين..

"من يدلون بالأصوات لا يقررون شيئًا.. مَن يفرزون وحدهم يقررون"

ازدرد المراسل ريقه بصعوبة.. حاول قدر الإمكان ألا ينظر في عين ضيفه لأنها تلمع بوهج مخيف.. فهو يشعر في ضيافة خصم شرس.. ضيف متوحش شديد الشّبه بكلب جيرمان شيبرد الألماني..

حتى أنه يشعر بأنه في أي لحظة قد يتحول ويغرس أنيابه وأظفاره في عنقه ويلتهمه في ثوان.. فوجّه إليه سؤال آخر بحذر ولا يزال المسجل موجود على المنضدة يوثق الحوار.

- حسنًا.. ننتقل إلى قضية أخرى.. ما رأيك في الاتهامات العديدة التي تلاحق المستشارين وتدّعي أنهم يستخدمون نفوذهم في تعيين أبنائهم وأقاربهم بسلك القضاء وتوريثها؟!

أطلق المستشار "داوود" ضحكة ساخرة مدوية وكرشه يرتج كالجيلي.. ثم سَحَبَ نفسًا آخر من غليونه ونفثه باستهتار حتى توغل الدخان داخل رئة الصحفي المسكين، ثم ردَّ متهكما بينما الصحفي يسعل حتى كاد يبصق رئتيه..

- بالرغم من سذاجة السؤال واستفزازه لكني سأجيبك بصراحة، لماذا فقط من حق ابن الطبيب أن يصبح طبيبًا؟ ابن الممثل ممثلًا؟ حتى ابن السباك يصبح سباكًا؟ لكن عندما يتعلق الأمر بالقضاة يثور الناس وتتأزم الأمور.. مع أن هذا هو العدل ومجرد ثمن بسيط ورد جميل لما بذلوه وقدّموه من خدمات جليلة وإفناء حياتهم في سبيل رفعة هذا الوطن..

هذا بخلاف أن أبناء القضاة يمتلكون من الوجاهة الاجتماعية والحصافة التي بلا شك تؤهلهم لذلك.

كان المستشار داود من أكثر القضاة الذين لديهم أقرباء داخل السلك القضائي.. فابنه أحمد مستشار وابنته غادة تعمل في النيابة.. غير أنه عيَّن حوالي عشرة من أقربائه.. أما الذين لم يحالفهم الحظ فقد نجح في إقحامهم في وظائف رفيعة في مختلف مؤسسات الدولة والشركات الأجنبية بفعل علاقاته ونفوذه.

أطرق الصحفي النظر في ورقة أسئلته.. ثم رشف رشفة من كوب الماء وهو يحاول السيطرة على انفعالاته..

– ألا تخشى على حياتك؟!

فانتابت المستشار نوبة عنيفة من الضحك حتى دمعت عيناه، وتشكك الصحفي أنه ربما أطلق نكتة بغير قصد،وعندما هدأ المستشار قال وقد قطَّب جبينه وأصابع يديه متشابكة:

– أنا أؤمن يقينًا بقوله تعالى: "قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا".. فكل هذه التهديدات أعتبرها نوعًا من النهيق.. كلمات فارغة في الهواء..

نظر الصحفي مليًا في الورقة..ثم أفرج ثغره عن ابتسامة هادئة وهو يقول:

– أنا أعرف أن السؤال شخصي، لكنه يثير فضولي الشخصي وفضول القراء بالتأكيد.. لماذا اخترت أن يكون شاربك بهذه الهيئة؟!

فقهقه القاضي مرة أخرى حتى دمعت عيناه.. ثم قال وهو يلوح بالغليون:

– أنت لن تتخيَّل كمية الكريمات والأموال التي أنفقها لكي أعتني به..عمومًا هو ليس بدعة..شخصيًا أفضل الشارب الإنجليزي المفتول، وقد ظهرت به شخصيات شهيرة كسلفادور دالي..ستالين.. الخديوي عباس حلمي الثاني، وحتى شخصية أجاثا كريستي الشهيرة هركيول بوارو..

على فكرة في الماضي كان هذا الشارب رمزًا للموضة في العصر الإليزابيثي في إنجلترا.. علامة مميزة تفصح عن الرجولة والفحولة، وتضفي المزيد من الهيبة والصرامة.. بخلاف أن زوجتي تحبني هكذا.. هاهاهاها..

بعد انتهاء الحوار الصحفي كان المستشار داود في سيارته البي إم دبليو يخبر زوجته على الهاتف بأنه في الطريق إليهم في الساحل الشمالي.. ثم ضغط على دواسات البنزين بعنف.

***

(4)

"أوريكاااااااااااا.. أوريكاااااااااا"

"وجدتهاااااااااااا.. وجدتهاااااااااا"

اكتشفَ أرشميدس قانون الطفو، وهو يغتسل في الحمام.. فخرج مُنتشيًا وهو يصيح مُنتشيًا بهذه الكلمات..

كان هذا هو ذات الشعور الذي استحوذ على يوسف عندما قام بتعديل الكلمات في محرك البحث.. شعور هائل بالإثارة والنجاح يسطو عليه، ولولا منصبه وهيبته ربما لخرج من مكتبه يهتف كالمجانين مثلما فعل أرشميدس من قبل.. فقد كان ساذجًا منذ البداية.. كل ما تطلبه الأمر هو أن يضيف كلمة "لوحة" لتصير الجملة هي "لوحة حكم قمبيز" لتظهر معها نتائج أخرى مختلفة مذهلة للغاية..

كانت هناك لوحتان تحملان ذات الاسم، وترويان الواقعة نفسها بالتحديد..

اللوحة الأولى زيتية من عمل الفنان الهولندي "جيرارد دافيد" تعود إلى عام 1498 ومحفوظة في متحف غرونينغ في بروج.. لوحة مزدوجة.. تتشكل من لوحتين معًا.. الجزء الأول منها يُسمى "القبض على سيسامنيس"، وهي لوحة تصف حادث ما في العصر الفارسي، يظهر فيها مجموعة من رجال الأمن التابعين للملك وهم يقومون بالقبض على شخص مذعور جالس على مقعده يرتدي عباءة حمراء على مرأى من العامة..

أما الجزء الثاني فيسمى "سلخ سيسامنيس" ويظهر فيه ذات الشخص المعتقل ممددًا على طاولة خشبية وهو مقيد.. فيما يقوم الجلادون باستخدام السكاكين لسلخ جلده عن جسده وهو حي في مشهد تقشعر له الأبدان..

أما اللوحة الثانية فهي مرسومة على الزجاج.. تُسمي أيضًا "حكم قمبيز" من عمل الفنان الفلمنكي ديرك فليرت منذ عام 1542..

حيث يظهر فيها مجموعة من الجنود وهم ينهالون بالضرب على جسد رجل كث اللحية أشعث ممدد على الأرضية عاري الجسد تمامًا بينما مجموعة أخرى مشغولة بسلخه.. فيما في الخلفية يظهر جلد ذات الشخص من الرأس حتى القدم معلق ومصلوب فوق مقعد خشبي

مهيب يجلس عليه شخص حزين ينظر بطرف عينيه في أسى وشفقة..
كانت الواقعة باختصار تحكي عن سيسامنيس.. القاضي الفاسد الذي عاش إبان القرن السادس قبل الميلاد وروى عنه هيرودوت بأنه أُدين بتهمة الرشاوى مقابل إصدار أحكام جائرة.. فلما علم قمبيز بذلك ألقى القبض عليه، وأصدر عليه حكمه المروع بسلخه حيًّا.. ثم اتخذ من جلده فرشاً للكرسي الذي يجلس عليه أوتانيس ابنه..كي يخلفه في منصب القضاء، وليتذكر على أي كرسي يجلس لإصدار الأحكام..

ازدرد يوسف ريقه بصعوبة عندما انتهى من قراءة المقال مدركًا الحقيقة المهولة.. فلو صحت هذه المعلومات فهذا يعني أن السفاح المجنون مُقبِل على تنفيذ أبشع جرائمه.. جريمة سيكون ضحيتها هذه المرة شخص رفيع المستوى.. قاضٍ بالتحديد..

والآن يتبقى السؤال:

أي قاضٍ ينوي أن يقتله؟!.

***

(5)

استقلَّ القاضي سيارته البي إم دبليو.. جلس خلف مقودها الفاخر.. دفع الفتيس للأمام.. ثم ضغط على دواسة البنزين بكل قوة لتنطلق مسرعة كمارد..

كان المستشار من المؤمنين بمقولة أن السيارة مثل الزوجة يجب أن يكون المرء متأقلمًا معها.. لذا ابتاع هذه السيارة منذ عامين ومن حينها لحسن الحظ تغيَّرت حياته للأفضل.. فلم تخزِه مرةً.. بل كانت طيلة الوقت مطيعة.. جامحة.. تنصاع لرغباته وتنسجم مع جنونه في كل لحظة..

في طريق مصر إسكندرية الصحراوي كانت مؤشرات عداد السيارة تشير إلى سرعة مئة وعشرين كيلومتر.. لكن المشكلة أن الطريق معتم.. السيارة تشق طريقها وسط الظلام الدامس.. بينما

الهواء البارد يلطم وجهه بقسوة..كأنه يمضي في طريق للعالم السفلي.. إلى أتون الجحيم ذاته، ولهذا فقد رواده خاطر أن يقاضي محافظ الإسكندرية فيما بعد.. فالطريق الذي يربط بين العاصمة وأكبر مدينة بعدها معتم كالقبور.. ولولا إضاءات السيارات لما تمكنوا من المضي قدمًا..

كان داود يشعر بالوحدة بشدة.. فقام بتشغيل الراديو ليؤانسه.. ضبطه على إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع إحدى أغاني أم كلثوم والتي راح صوتها يدوي بقصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي..

يا فؤادي لا تسل أين الهوى.. كان صرحًا من خيالٍ فهوى
اسقني واشرب على أطلاله .. وارو عني طالما الدمع روى
كيف ذاك الحب أمسى خبرًا .. وحديثًا من أحاديث الجوى

كانت دائمًا أم كلثوم ما تنجح معه.. في كل مرة تأخذه إلى عوالم أخرى.. إلى مجرات بعيدة.. في أقصى أصقاع الكون.. ليُحلّق عاليًا عاليًا بين النجوم..صوتها الرخيم الشجي له قدرة فائقة على بثّ الخدر في جسده..لهذا فهو يعد أغانيها نوعًا من الحشيش..لكنه حشيش راقٍ يسمو بالروح لأعلى عليين، وربما يكون أيضًا من عوامل افتتانه بها يرجع إلى إجادتها اللغة العربية..فلو لم يكن قاضيًا ربما كان يعمل الآن في المجمع اللغوي..فهو يعشق لغة الضاد حتى النخاع.. حتى أنه اشتُهر بإحراجه المحامين بفصاحته وتشدقه..

فلما يقول أحدهم: "حاضر عن المتهم"..

ينهره ويقول له في قسوة: "بل مع المتهم.. لأن المتهم موجود، أما عن تقال لو كان غائبًا.."

كان أكثر شيء يؤرق داود هو مستقبله القادم بعد التقاعد.. فهو يبدو غامضًا.. مخيفًا.. فالآن هو في أواخر الخمسينيات، والعمر يمضي في لحظة، وقد حانت اللحظة ليفكر بجدية في مستقبله.. فهو لن يقبل بأي حال من الأحوال أن يؤول به المآل إلى أن يصير مثل خيل الحكومة.. يطلقون عليه الرصاص عندما يشيخ.. أو أن يستحيل إلى عجوز وحيد يقضي جل أيامه في المستشفيات بسبب اكتئابه وأمراض الشيخوخة التي تتكالب عليه.. لكن لا.. لن يكون هذا مصيره.. سيبقى قويًّا.. قويًّا للأبد.. بل أكثر قوة..

لهذا حصر خططه في خيارين.. فإما أن يتجه للبيزنس مستفيدًا بعلاقاته النافذة.. أو يرتقي إلى أعلى المناصب التنفيذية.. فهو لن يقبل بأقل من محافظ أو وزير.. نعم.. ينبغي أن يكون هذا مصيره.. هو رجل دولة منذ البداية.

ثم ابتسم المستشار عندما تخيَّل نفسه واقفًا في خشوع أمام رئيس الجمهورية وهو يؤدي القسم الجمهوري.. بالتأكيد ستكون هذه أسعد لحظات حياته.. هذا هو طموحه الأعظم.. بدا أن شهوة السلطة والحكم تمكنت من داود حتى النخاع.. هذا رجل اعتاد أن يتحكم في

حيوات الآخرين.. يحيي ويميت دون أن يطلق رصاص أو يريق دمًا.. فقط بكلمة منه..

والأمر بسيط.. فكل ما يجب عليه أن يمسك بالصولجان ويعتلي عرشه بكبرياء.. ثم يزن المتهم بعينيه القاسيتين.. ليطلق في النهاية حكمه المقدس.. هل هو بريء فيذهب إلى الفردوس، أم أنه آثم فيلبث في الجحيم أبد الآبدين؟!

كانت أم كلثوم لا تزال تغني في شجن:

هل رأى الحب سكارى مثلنا .. كم بنينا من خيالٍ حولنا ومشينا في طريق مقمرٍ.. تثب الفرحة فيه قبلنا

فضحك داود في سره مغمغمًا:

– بل في طريق أسود يا ست..

لكن بالرغم من قوته الباطشة فقد كان يخشي أمرًا واحدًا..

أمر يرتعد له منذ نعومة أظفاره.. الموت..أن ينقضي أجله فيخضع للمحكمة الإلهية في دار الحق.. دار العدالة الحقيقية، ولهذا فهو لم يستطع أن يتخلص من شعور بأن أحدهم يقتفي أثره، وكي يشعر بالاطمئنان فقد اعتاد ملامسة سلاحه بين الفينة والأخرى.. في هذه اللحظة رن هاتفه.. فأجفل.. كان رقمًا غريبًا.. تردد لثوانٍ قبل أن

يجيب.. ثم ضغط زر قبول المكالمة في النهاية.. ليأتيه صوت مخيف.. صوت غير آدمي يضحك في جنون:

– هل استمتعت بجوار اليوم يا سيادة المستشار؟!

فارتعد داود وشحب لونه كالموتى.. ثم انفجر زاعقًا:

– من أنت؟ من أنت يا بن الكلاب؟!

فدوَّى بجواره صوت نفير مرعب.. فتلفت ناحية مصدره ليباغت بمقطورة ضخمة تسير بجواره بدت كأنها برزت من العدم.. بينما سائقها المقنع يلوح له باستهتار، ويقول وهو ممسك بهاتفه:

– هاهاهاها.. من أنا؟! حقاً.. ألا تعرفني؟!.. أنا قدرك..

ثم مال بالسيارة عليه بقوة..حاول داود أن يتفاداه.. لكنه شعر بأنه يواجه قوة كاسحة..جبل يحاول سحقه سحقًا.. ففقد القدرة على التحكم حتى صدمه بقوة به في النهاية.. ثم انقلبت السيارة وطارت بعيدًا كسيارات الأطفال.. بعدها ساد الظلام كل شيء.. بينما أم كلثوم لا تزال تشدو..

ومضى كل إلى غايته .. لا تقل شئنا فإن الحظَّ شاء.

***

(6)

دلف يوسف إلى مكتب مدير مباحث العاصمة فوجد اللواء "ضرغام" يتكلم في الهاتف بعصبية كأنما تحوَّل إلى ليث غاضب.. بركان على وشك الانفجار..

وقتها فكَّر يوسف في الخروج مرة أخرى..يبدو أنه حضر في وقت غير مناسب بالمرة.. لقد تورط من سوء حظه في قضية صعبة.. قضية لا يوجد مشتبه بها.. قضية يتحرك فيها المجرم أسرع مما يتخيلون.. دون أن يترك أي أثر أو يرتكب خطأ واحدًا..مثل قطار يسير فوق قضبان.. لا يحيد أبدًا عن طريقه..

كان اللواء لا يزال يجأر بصوت مخيف ارتجت له الغرفة..كأن إعصار كاترينا يخرج من فمه..ثم أنهى المكالمة في النهاية غاضبًا.. بعدها أرسل إلى يوسف نظرة حارقة..

– ها.. أخبرني يا سيادة المقدم هل من جديد؟! هل حصلتم على أي مشتبه منه أو طرف خيط؟!

فأطرق يوسف رأسه إلى الأرض في خنوع وهو ممسك بأحد الملفات..

– لا يا سيدي.. لكننا توصلنا إلى وجهة القاتل المقبلة؟!

فمال اللواء ضرغام بجذعه للأمام، وقد انتبهت كل حواسه كقطٍّ متربص..

– فعلًا؟! كيف وصلتم لهذا؟! ويا ترى من الضحية الجديدة؟!

كان يوسف من فرط توتره شاردًا في اللوحة النحاسية البارزة أمامه والتي تحمل اسم خصمه.."شوقي ضرغام".. اللواء المخيف مدير مباحث العاصمة..كان اللواء أصلع الفودين يميل لونهما للبني بسبب الصبغة.. عيناه رمادتين جاحظتين بسبب تدخينه الشره ولأنه يعاني خللًا في إفراز هرمون الغدة الدرقية..ذا أنف معقوف وشفتين غليظتين وفكٍّ صارم قوي، وجلد مجعد جعله شبيه بكلب "ماستيف نابولي" الشرس..حتى بدا هذا الوحش الآدمي قادرًا على افتراس خصمه والإجهاز عليه في أي لحظة..

ثم أشار له بالجلوس..

فجلس يوسف ثم قال بصوت هادىء:

– منذ عدة ساعات وجدت هذه الرسالة ملقاة على زجاج سيارتي.

يبدو أن المجرم يتلاعب بنا ويتحدانا فأرسلها لي.. فضرب اللواء سطح المكتب بقبضته غاضبًا فأصدر صوتًا مُدويًا ثم قال متعجبًا..

– هذا يعني أن هناك ثغرة أمنية لدرجة أنه عرف هويتك، ويا ترى ما الذي كانت تحتويه هذه الرسالة؟!

فتصلب لسان يوسف وهلةً.. بدا أنه غير واثق بما يقول.. ثم نطق في النهاية..

– لم يكن بها شيء سوى جملة واحدة فقط..

ثم ناوله الرسالة وهو يتابع الحديث..

– ابحث عن حكم قمبيز..

تجمد اللواء في مكانه هو الآخر..كأن المفاجأة شلت حواسه فتعطلت لثوانٍ قليلة..لم يدرِ ماذا يقول.. فمسح على رأسه ببطء وهو يفكر حتى بدأ في استعادة كينونته العصبية مرة أخرى.. فطوّح بالرسالة ثم ضرب سطح المكتب بقبضته غاضبًا وقال بصوت أصاب أذن يوسف بالصمم لثوانٍ..

– قمبيز؟! ويا ترى هل وجدته؟! ما هذه الألغاز يا حضرة الضابط.. هل هزأ بي.. هل هذا ما تهدرون وقتكم في البحث عنه؟! من يضمن لك أنها ليست مزحة سخيفة من أحدهم؟!

فدافع يوسف عن نفسه بصوت متلعثم:

– ص.. صدقني يا شوقي بيك.. أنا في البداية تصورتها خدعة.. لكن كما علمتنا لا أهمل أي معلومة حتى لو بدت سخيفة لأنها قد تكون هي طرف الخيط.. كانت الرسالة تبدو كشفرة وقد نجحت في حلها في النهاية..

ثم تابع الكلام في توتر:

– هذه الكلمات تُشير إلى لوحة تاريخية في العصور الوسطى لسلخ قاضٍ فاسد إبان حكم الإمبراطور الفارسي قمبيز..

فاتسعت عين اللواء من الهول، فصمتَ مرة أخرى لعدة ثوانٍ كأن لسانه التصق بحلقه..

ثم قال في ذهول:

– سلخ؟!

– نعم يا سيدي.. سلخ.. لكن المعلومات للأسف لم تُحدِّد هوية الضحية.. أقصد القاضي المُستهدَف..

فاعتدل اللواء في مقعده، ثم أخذ يطرق على مكتبه بأصابعه ذاهلًا وهو يقول:

– هل تعرف يا سيادة الرائد كم عدد القُضاة في مصر؟!

هذه المعلومة – لو صدقت– تثير الجنون أكثر وتضعنا أمام آلاف الاحتمالات.. أكثر من عشرة آلاف قاضٍ واحد منهم يستهدفه هذا المخبول.. يستحيل أن ننجح في تأمين كل هذا العدد المهول..

ثم أخذ يحدث نفسه ويسبُّ ويلعن كأنما أصابه مسٌّ من الجنون..

– ابن السافلة.. ابن السافلة..

ثم تلقائيًا رفع السماعة وقام بالضغط على عدة أرقام حتى أجاب الطرف الآخر فأخذ يكلمه في خشوع..

– نعم يا فندم.. لقد وصلتنا إخبارية عن ضحية السفاح المجنون القادمة.. على الأرجح ستكون شخصية رفيعة المستوى.. نعم.. قاضٍ بالتحديد.. أعرف أن الوضع صعب.. لكننا يجب أن نتفادى أسوأ الاحتمالات..لذا أقترح تأمين وزير العدل وأعضاء المحكمة الدستورية ورئيس نادي القضاة..

بعدها بدقيقة وضع اللواء السماعة والوجوم يسيطر على ملامحه..

ثم مَطَّ شفتيه في أسى قائلًا بنبرة يائسة:

– للأسف لقد تأخرنا.. لقد عرفنا هُوية القاضي.

***

(7)

ومضى كلٌّ إلى غايته .. لا تقلْ شِئنا فإن الحظَّ شاء

***

عندما أفاق المستشار داود وجد نفسه عاريًا كيوم ولدته أمه، ممددًا على منضدة خشبية ويداه وساقاه موثوقتان.. آلام مبرحة تعتري جسده كأنه سقط من ناطحة سحاب أو دهسه فيل إفريقي..لكن أين هو؟! وما سبب هذه الآلام؟!ولماذا يرى العالم من خلال ثقبين صغيرين كأن هناك جسم حديدي يجثم فوق وجهه؟!

حاول أن يتذكر أي شيء.. لكن فقط صور ضبابية تظهر له في عقله..

الحوار الصحفي.. المحكمة.. الشاليه.. طريق مصر إسكندرية.. أم كلثوم، المقطورة، الهاتف، و.. ثم فقد الوعي.. حينها سطعت في رأسه رؤية فارتجف.. الآن يتذكر..

حاول داود أن يصرخ لكنه فشل..شعر كأن مدية حديدية مغروسة داخل لسانه وتغوص أكثر كلما هَمَّ بإطلاق صرخة جديدة.. حتى سال خيط من الدم من لسانه وتدلى خارج فمه.. في هذه اللحظة رآه..

كان زارا هذه المرة يرفل في زي مبهرج ضيق ذي مثلثات حمراء وزرقاء تحيطها خلفية صفراء، وياقة بيضاء ساتان، وحزام بني مشدود على خصره.. بالضبط يبدو كمهرج، وكعادته كان يغطي وجهه ذه المرة بقناع مختلف.. قناع أرل كينو الرهيب..

وهو قناع أسود يُشبه وجه القط ذو جبهة منخفضة مليئة بالتجاعيد، وعينان على هيئة هلالين صغيرين، وأنف مفلطح ينتهي بشفة واحدة بدون شفة سفلى أو ذقن..

وجَّه زارا الكلام إلى القاضي المفزوع بلهجة ساخرة وهو يلوح بسكين حادٍّ:

– مرحبًا بك يا سيادة القاضي.. نورت المحكمة..هاهاهاها

ثم تنهَّد قائلا وعلى وجهه تلوح ابتسامة مجنونة..

– ياااااااه.. لقد انتظرت هذا اللقاء منذ وقت بعيد.. تصوَّر أنني كنت أحتفظُ بهذا الزي منذ مدة ومصمم على ألا أرتديه إلا في مواجهتك.. بالضبط مثل حال طفل صغير ينتظر العيد ليرتدي زيه

الجديد.. لا.. لا.. نظرة السخرية والازدراء في عينك لا تعجبني.. صحيح أن هذا الزي يبدو كمهرج.. لكنه ليس كأي مهرج.. هذا زي أرل كينو العظيم.. ألا تعرفه؟!

ثم تابع الكلام مستهزئًا وهو يغمز بعينه..

– يقولون يا سيدي أن "أرل كينو" هذا كان خادمًا لنبيل قديم يُدعى "بانتالون"، مشهور بخفة الحركة والرشاقة كالبهلوان.. لكن بيني وبينك هذه ليست الحقيقة تمامًا.. فالحقيقة أن هذا الاسم مستوحًى من أحد الشياطين في ملحمة دانتي"الجحيم"..

أسمعك تقول وما شأني بهذا؟

تؤتؤ.. هكذا ستجعلني أغضب يا سيادة المستشار.. كنت أظنك أذكى من هذا، وهل كنت أنت نفسك إلا مهرجًا كبيرًا في مهرجان المحاكم؟!

ثم قال زارا بصوت خفيض ضاحك:

– تخيَّل أن هذا الشيطان المهرج الآن هو القاضي المنوط به الحكم عليك..هاهاهاهاها..

كان القاضي يرتجف من الخوف.. عيناه جاحظتان والدموع محتشدة في مقلتيه.. حاول الكلام لكن هذه الشوكة الحديدية منعته..

بينما زارا يتهادى كأنه فنان في عرض مسرحي.. فاستأنف الحديث وهو يقول بذات النغمة الساخرة:

معذرة يا سيادة القاضي..أظن أنك أول مرة توضع في هذا الموقف الصعب، وللأسف لن تستطيع الكلام هذه المرة.. لقد ثرثرت قديمًا في الماضي.. فالقناع المُثبت على وجهه يُسمى لجام المرأة السليطة.. نعم كما سمعت.. اسمه لجام المرأة السليطة، وهو قفص حديدي أنيق يخرج منه لسان حاد يرشق في لسان الضحية.. أظن أنك تتفق معي في أنك ثرثرت بما فيه الكفاية، وقد حان وقتك للإصغاء..

كانت همهمات القاضي مصحوبة بدموعه الساخنة المنسابة فوق وجنتيه.. الخوف ينهش في جسده.. كل عضلات جسده مشدودة ومتشنجة.. لكن هذا لم يفت في عضد زارا.. فقال بصوت مُتهكم:

– هل تعرف ما مشكلتك يا سيادة المستشار؟! أظنُّ أنك لم تتخيل وهلة أنه يمكن عقابك.. طيلة الوقت كنتَ تظن نفسك في برج عاجي مُحصَّن حتى أفرطت بشدة في الظلم.. "إعدام "كانت أسهل كلمة لديك.. علكة تمضغها في فمك.. لكن للأسف دوام الحال من المحال.. صحيح.. هل تعرف ماذا قال زارا بشأنك؟!

ثم التقط كتاب "هكذا تكلم زرادشت" وأخذ يتلو مقطع منه في خشوع كأنه يقرأ كلام مقدس..

"احذروا من تغلبت عليهم غريزة إنزال العقاب.. لأنهم منحدرون من أسوأ الأنواع، وعلى وجوههم سيماء الجلادين.."

بعدها تلاشت الابتسامة من فوق وجه زارا بغتة وعبس كأنه تحول إلى شيطان.. فقال بصوت جهوري مخيف:

– والآن حان وقت الحساااااااب وفقًا لدستور زارا الحكيم.. حكمت المحكمة على القاضي الفاسد المدعو داود سيف الدين حرب بالسلخ.. السلخ حتى الموت..

كانت الطاولة الخشبية تهتزُّ بقوة بفعل حركات داود العنيفة لكن بلا فائدة.. حتى اقترب زارا من وجهه وأنفاسه الساخنة تلفح وجهه.

– صدقني يا صديقي.. حاولت أن أعثر لك على مخدر لكن لم أجده في الصيدلية المجاورة..لذلك يؤسفني بحق كل الآلام التي ستتكبدها.. لكن ثق أن هذه السكين ستؤدي المهمة في أسرع وقت.. لقد بذلت جهدًا حتى أجد واحدة في جودتها.. اسمها جيربرج من إنتاج شركة مورا السويدية لو كنت تهتم بالتفاصيل..

ثم لوَّح زارا بالسكين أمام عيني داود الجاحظتين المرتعدتين..

– اطمئن..سأصنع منك لوحة مجيدة..مثلما خلد السابقون ذكرى سلخ سيسمانيس في الماضي..لوحة سيهتز لها العالم وتحكي عنها الأجيال القادمة لعقود..

ثم غمز بعينه اليمنى وهو يهمس:

– كما أن بيني وبينك مقعدي في المكتب يحتاج إلى تنجيد.. ولن أجد جلدًا أفضل من جلدك لأبطنه به..

بعدها ضغط على زر ريموت أخرجه من جعبته وهو يبتسم بركن فمه.. ليصدح في الأنحاء صوت داليدا العذب وهي تشدو بالإيطالية أغنية "أرِل كينو" وفي الخلفية يشاركها جوقة من الأطفال..

ثم أخذ يرقص بحركات بهلوانية، وهو يلوح بالسكين كالمايسترو منتشيًا..

أرِل كينو.. مثلك.. Arlecchino è proprio come te

مثلك.. مثلك.. Come te, come te

فمسرحيتك تنتهي هنا.. La commedia tua finisce qui

كم أنت كذاب.. che bugiardo che sei

لم تقل الحقيقة مطلقًا.. Non dici mai la verità

أرِل كينو.. مثلك.. Arlecchino è proprio come te

مثلك.. مثلك.. Come te, come te

ثم وقف عند منتصف جسد القاضي وهو لا يزال يرقص على أطراف أصابعه، وإذ بغتة رشق السكين في بطنه عند السرة وهو يدندن:

فليُسدَل الستار.. Il sipario va giù

لا مزيد من الألعاب.. لا مزيد من النكات.. Non scherzi più, non giochi più

فلن تضحك مجددًا.. Non ridi più

ثم بدأ السلخ.

***

4

جسد ولحم

(1)

برنامج تلفزيوني..

– هل يمكنك أن تخبرنا أكثر يا دكتور عن جرائم القتل المتسلسلة.. أقصد هذا النوع من الجرائم جديد على مجتمعنا.. الأمثلة عليه محدودة بالفعل.. ربما لا نعرف منه سوى ريا وسكينة؟!

كانت المذيعة الفاتنة تضع ساقًا على ساق فكشفت عن ساقها الملفوفة،وهي تسأل الطبيبة النفسية الشهيرة..ياسمين الكيلاني.. أستاذة كلية الطب المرموقة رغم حداثة سنها..

كانتا المرأتان تشكلان نموذجين شديدي التضاد.. الأنثى الإعلامية التي تمثل الجمال الصارخ والبهرجة، والأخرى الأكاديمية التي تمثل وجه الثقافة والعلم البحت..

فأجابتها الطبيبة بثقة متناهية وهي تضبط نظارة طبية فوق أنفها..

– أولًا يجب علينا أن نُعرف مَن القاتل المتسلسل؟! طبقًا للإف بي آي فإن القاتل المتسلسل يشترط أن يكون قام بارتكاب ثلاث جرائم أو أكثر في أماكن مختلفة وتفصل بينهم فترة زمنية يسمونها بالفترة الباردة Cooling off period، وهذا التعريف وضعوه بالذات للتمييز عن قاتل التجمعات الذي يُسمى Mass murder، وهو الذي ربما يقتل أكثر من ضحية في ذات المكان أو عدة أماكن بدون فترة زمنية فاصلة وأبرز مثال على هذا النوع هو ذلك الشخص المختل الذي هاجَم مدرسة ساندي هوك الابتدائية بولاية كونتيكت الأمريكية وقتل أكثر من 20 طفلًا دفعة واحدة عام 2012..

– هذا يعني أن قاتلنا تنطبق عليه أوصاف القاتل المتسلسل.. لكن هذا يدفعنا لطرح سؤال جديد..هل هناك صفات مشتركة تجمع بينهما؟!

قلصت الطبيبة وجهها فأصبح يشبه حيوان الليمور..

ثم قالت بلهجة جادة:

– حسنًا.. معظم هؤلاء القتلة سيكوباتيين أعداء للمجتمع.. كما أن الأبحاث أثبتت أنهم يشتركون في أحداث معينة في طفولتهم تدل على بيئتهم النفسية المضطربة وحسب الإحصاءات وجدت ثلاث خواص تجمع معظمهم..

أولًا: بلل الفراش.. فيتأخرون مدة غير قليلة في التحكم في مثانتهم..

ثانيًا: إشعال الحرائق.. فمشهد النيران وهي تلتهم ما أمامها يثير خيالهم بشدة..

أما الأمر الثالث والأخير فهو تعذيب الحيوانات.. حتى أن بعضهم يستمتع بقتلهم والتمثيل بجثثهم..

– هذا بالنسبة للطفولة..لكن هل هناك صفات جسدية معينة يشتركون فيها؟!

سُلطت الكاميرا مرة أخرى على وجه الطبيبة.. الذي كان شديد البياض مثل سنو وايت فلم تعكر صفوه سوى قدر ضئيل من المساحيق..

فأجابت قائلة..

– نعم.. هناك عشر صفات وَجدت أنها موجودة في معظمهم..

ثم أخذت الطبيبة تسرد هذه الصفات.. فمعظمهم بيض البشرة.. كما أنهم أذكياء بدرجة كبيرة.. فالآي كيو الخاص بهم مرتفع جدًا.. مما يؤهلهم للتخطيط ببراعة، ورغم ذكائهم الملحوظ لكن أداءهم في المدرسة سيئ.. فعندما يلتحقون بأعمال مجتمعية يحققون نتائج سلبية..

أيضًا هم يترعرعون في عائلات غير مستقرة.. فغالبًا يتركهم آبائهم، وأمهاتهم وحدهن هن مَن تعتني بهم.. بالإضافة إلى أن لديهم

تاريخًا طويلًا من المشكلات النفسية.. فكثير منهم أدمن المخدرات والكحوليات، وفي أثناء طفولتهم معظمهم عانى القهر الجسدي وربما الاغتصاب الجنسي، وكنتيجة لهذا القهر الذي عانوه في الصغر، وإهمال الأب.. فهم يملكون مشاعر قوية تجاه الإناث في صورة غضب أو حب مرضي..

ورغم ذلك فلا توجد سن معينة لظهور بوادر أمراضهم النفسية.. فقد تبرز على السطح في أي وقت، وبقية الأوقات قد يبدون هادئين في وداعة الحملان وبراءة الأطفال.. لكنهم في الحقيقة قنابل موقوتة.. فبسبب انعزالهم والعنف الذي يتعرضون له.. فقد يلجأون للانتحار في أوقات كثيرة بالذات في أثناء فترة المراهقة..

وأخيرًا فأغلبهم له ميول جنسية غريبة.. لذا قد يلجأون للعنف الجنسي أو الشذوذ..

كانت المذيعة لا تزال تضع ساقًا فوق ساق.. فمسحت على شعرها الطويل المنساب.. ثم سألتها بنبرة مصطنعة:

– تمام.. جميل جدًا..لكن معنى كلامك أنهم لا ينشأون قتلة متسلسلين في ليلة، وضحاها..بل تسبقها مراحل عديدة تبلور هذا التحول الرهيب.. فهل يمكنك أن تذكري لنا هذه المراحل؟!

قامت الطبيبة بضبط النظارة فوق أرنبة أنفه مرة أخرى، ثم أجابت بنبرة عميقة..

– في عام 1988 وصف طبيب نفسي يُدعى نوريس مراحل التطور النفسي لهؤلاء السفاحين وقسمها إلى أربع مراحل..

المرحلة الأولى سماها "الهالة"، والتي خلالها ينسحب المجرم من مجتمعه.. ينعزل عن العالم.. تحاصره الخيالات والأصوات التي تأمره في رأسه بفعل أشياء شريرة.. كما أنه ينغمس فيها في تجرع الخمور ومعاقرة المخدرات..

أما المرحلة الثانية فهي.. القتل، والتي تحدث فيها الجريمة ذاتها.. والضحية هنا إما شخصية يعرفها فيستدرجها إلى فخ.. أو عشوائية فيقتحم أي منزل ويقتل من فيه بلا شفقة..

لتأتي المرحلة التي تليها.. المرحلة الثالثة.. الطوطم، والتي يحرص خلالها الكثير منهم على تأدية طقوسهم المميزة التي تحمل بصمتهم الخاصة.. فبعضهم يلتقط صورًا مع الضحايا.. آخرون يحتفظون بممتلكات منهم أو أعضاء من جثثهم.. مجموعة ثالثة ترسل رسائل أو قصاصات إلى الصحف.. إلخ

وهذه المرحلة هي جزؤهم المفضل.. الجائزة الكبرى التي تمنحهم الفخر وتدعوهم إلى الاعتداد بالذات، وبعد انقضاء شهوتهم المريضة وانحسار أضواء الشهرة عن جرائمهم ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة..

الاكتئاب الحاد، والتي خلالها يشعرون بالخواء النفسي.. فتصارعهم الأوهام مرة أخرى..لدرجة أن بعضهم قد يذهب للشرطة

ويعترف بجرائمه للخلاص..بينما البعض الآخر يبدأ في التخطيط لجريمة أخرى..

طوّحت المذيعة برأسها وشعرها الأسود الطويل فبدت مثل فتيات الإعلانات ثم قامت بالمسح عليه مرة أخرى وهي تسبل النظر وتحاول في ذات الوقت أن ترسم الجدية على ملامحها المثيرة وهي تسأل ضيفتها..

– ولكن هل يمكن التنبؤ بسلوكيات القتل؟!

صمتت الطبيبة وهلةً كأنها تقوم بتنميق الإجابة واختيار كلماتها.. ولا عجب فالآلاف يتابعونها.. ثم تنهدت وقالت بصوت عميق..

– كل سفاح له بصمته الخاصة.. نمطه المتفرد الذي يحاول أن يكرره في كل جريمة.. فبعضهم يترك توقيعًا.. يقتلع جزءًا معينًا من الجثة كتذكار.. أو يستخدم نفس وسيلة القتل في كل مرة..

فعلى سبيل المثال..كان الزودياك يترك رسالة مشفرة في كل جريمة قتل..

كولن أيرلند يقتل الشواذ جنسيا..

موريس سولمون، وجاك السفاح يقتلان العاهرات..

تسوتومو ميازاكي يرتشف من دماء ضحاياه بعد جرائمه..

تيد بندي يشوه الجثث ويحتفظ برؤوس ضحاياه..

وعلى هذا النحو فقاتلنا هنا ليس عشوائيًا مُطلقًا، ولكنه مهووس بالفن الأسود فينتقي ضحاياه بعناية وينقل أبشع اللوحات الفنية إلى الواقع ويقلدها بالضبط..

وهذا هو الخطير في الأمر.. فهناك العشرات من اللوحات الشيطانية على مدار التاريخ الفني، وهذا يجعل القوس مفتوحًا.. دائمًا..

وكانت الجملة الأخيرة أخطر ما قالته.. وأكثره صدقًا.

***

(2)

11 يناير..

دلف يوسف إلى منزل القاضي المرحوم بصحبة زميله الرائد "محمد" في إحدى البنايات الفاخرة في شارع هادئ بالتجمع الخامس.. فتحت لهما خادمة آسيوية من الفلبين غالبًا، ثم دعتهما بتهذيب إلى الجلوس في الصالون انتظارًا لقدوم سيدتها المكلومة..

كانت الشقة مفروشة من الداخل بإتقان ينمُّ عن ذوق رفيع.. الصالة مبهجة ذات أرضية باركيه واسعة مزينة بأوانٍ خزفية وأبسطة فارسية وساعة أثرية على هيئة كيوبيد..بالضبط كأنها غرفة في أحد المتاحف..بينما في أحد الأركان تقبع صورة للمرحوم وهو يرتدي عباءة سوداء طويلة مزينة بوشاح أخضر، وهو ينحني بخشوع أمام رئيس الجمهورية الذي يصافحه أثناء تكريمه.. بعدها بدقائق.. جاءت

السيدة متشحة بالسواد تمضي بتؤدة، فكشفت خطواتها ووجهها المكسور عن بالغ حزنها العميق..

اسمها "مديحة السيد"..ذات شعر كستنائي معقوص للخلف تتخلله خصلات بيضاء، ووجه شاحب به مسحة جمال من الماضي..أنفها مثل منقار النسر، وعيناها تحيطان بها هالات سوداء من أثر السهر والبكاء..

نهضا لها تحية واحترامًا لكنها أشارت لهما بالجلوس على الفور.. كانت الزيارة روتينية.. على أمل أن يعثروا على أي خيط يقودهم إلى هذا المجرم الملعون..

شَدَّ يوسف قامته ثم قال في صوت هادئ ينم عن أدب جَمّ وكياسة:

– تعازيّ الحارة لكي يا سيدتي ولعائلتك الكريمة.. يؤسفني أن يكون لقاؤنا الأول في موقف مثل هذا.. كنت أودُّ اللقاء بكِ قبل هذا لكن أقدر صعوبة الظرف وعمق الجرح..صدقيني لولا صعوبة القضية وخطورة المجرم كنا أجلناها.. لكننا للأسف في أمسِّ الحاجة للوصول إلى أي معلومة قد تمكننا من العثور على السفاح والقصاص لأجل زوجك العظيم وكل الضحايا الذين أُريقت دماؤهم..

بعد إذاعة السفاح فيديو سلخه للقاضي حدثت ردة فعل واسعة أقوى من كل مرة.. فاجتمع القضاة في ناديهم في شارع شامبليون

وسط العاصمة ليصدروا بيانًا تحذيريًا هددوا فيه الحكومة بتعليق عقد المحاكم إن لم تنجح الشرطة في إلقاء القبض على القاتل في أسرع وقت.. فهم لم يعودوا يستأمنون أحدًا على أرواحهم بعد الآن..

كما أن الأمور ازدادت في التطور فقام مجموعة من النواب بتقديم طلب لاستجواب وزير الداخلية تحت قبة البرلمان فيما طالب آخرون بإقالته لعجزه عن وقف نزيف الدماء..

أومأت السيدة رأسها في حزن:

– حسنًا.. أرجو أن تكون مقابلتك سريعة وأسئلتك محددة.. لا مانع لديّ ما دام هذا قد يساعد تحرياتكم..

التقط يوسف إشارة موافقتها بمهارة.. فسألها بصوت هادئ:

– أعلم أن هذا السؤال روتيني وقد لا يكون معني له..كما أنني أعلم أن للسيد المرحوم خصومًا كثيرين بالذات من الجماعات الإرهابية المتشددة..لكن أريد أن أسئلك هل كانت توجد له عداوات أخرى.. نزاع أو خلافات مادية حتى مع أي شخص؟!

فأطرقت السيدة رأسها لأسفل محزونة.. ثم قالت بصوت مكسور:

– كان المرحوم لا يخشى في الحق لومة لائم، وكما قلتُ معظم أعدائه من أعداء الوطن..لكن سوىَ ذلك فقد كان محبوبًا جدًا وعلاقته جيدة بكل من حوله..

فسألها يوسف سؤالًا آخر..

– صدقيني الوطن لن ينسى تضحياته أبدًا، وثقي أننا سنقبض على قاتله ونقدمه للعدالة في أقرب فرصة، لكني كنتُ أودُّ سؤالك عن آخر مرة كلمتِ فيه المرحوم؟!

قامت السيدة بمسح دمعة ساخنة طفرت من جبينها فشعر يوسف كأنه أخطأ السؤال، ثم هدأت قليلًا، ورشفت رشفة من الماء، وقالت بصوت متهدج..

– كانت في حدود الخامسة مساء بعد أن أنهى حواره الصحفي ليخبرني أنه في الطريق إلينا ليلحق بنا في الشاليه الخاص بنا في الساحل الشمالي..كان سعيدًا جدًا وصوته يشع بهجة..ما زلتُ أذكرُ كلماته.. لم أكن أعلم أنها آخر كلماته.. ليتني لم أسبقه وكنتُ معه.. ليتني..

ثم اجتاحتها نوبة بكاء عنيف مرة أخرى..فأشار له محمد بضرورة المغادرة..

السيدة منهارة بالفعل ولن يتمكنوا من الحصول على أي شيء.. فاعتذرا لها مجددًا وهما يواسيانها، لكنها قبضت على رسغ يوسف بقوة وعيناها تتوسلان إليه وهي تقول بصوت مختنق بالدموع..

– أرجوكم ابذلوا أقصى مافي وسعكم.. أرجوكم اقتصوا لأجل زوجي..

كانت السيدة حزينة بحق.. فطبقًا لنموذج الطبيبة النفسية "كيوبلر روس" الخاص بمراحل الحزن فهي تمر بالمرحلة الرابعة.. مرحلة "الاكتئاب العميق"..

فربت يوسف على يدها في حنان وهو يحاول تحاشي النظر في عينيها.. حاول أن يطمئنها لكن الكلمات هربت منه.. سيخدعها.. هم أنفسهم غير واثقين: هل ستكون هناك نهاية لما يحدث أم لا؟ الأمر يبدو ككابوس مريع والقاتل يظهر كأنه شيطان من عوالم أخرى..

غادرا بعدها الشقة بسرعة، وهو يلقي نظرة إلى الخلف نحو المبنى الأبيض ذي المصابيح المضيئة.. ففي هذا المنزل كان يقطن القاضي، وبالتأكيد في بقعة ما هنا جاء القاتل وألقى نظرة على ضحيته وهو يخطط لجريمته.. بعدها لم يتذكر أي كلمة قالها له محمد كأنه في وادٍ آخر..

فشلنا في العثور على أي شيء.. لم يكن وقت مناسب.. يجب أن نبحث في طريق آخر.. علينا أن نغير طريقة نظرنا للقضية.. مستقبلنا أصبح على المحك.. إلخ..

فقد كان عقل يوسف في هذه اللحظات شاردًا في عوالم آخر.. كان يسخر حينها من الجملة الشهيرة "لا توجد جريمة كاملة"..

هع.. على الأرجح هذا الجملة هي أكثر جملة مخادعة في تاريخ البشرية.. فالتاريخ يعجُّ باغتيالات سياسية وجرائم كاملة لم يُعرف قط

مرتكبوها..فزودياك وجاك السفاح وقاتل كينيدي أشهرة الأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر..

فتح يوسف باب السيارة ليجلس أمام عجلة القيادة ثم فتح باب الكرسي المجاور لصديقه، وقبل أن يتحرك بالسيارة شبرًا واحدًا أطلق هاتفه الرنين المميز لقدوم رسالة..رسالة من رقم غريب، وعندما ولج إليها تجمَّد من المفاجأة..

كانت هذه هي رسالة القاتل الثانية.

***

(3)

خرج الداعية الإسلامي "يحي زيدان" من مبنى القناة التلفزيونية الخاصة متأنقًا في بذلة رمادية ورابطة عنق من ذات اللون لكنها أفتح قليلًا، وهو يتمتم بالأذكار وأنامله تفرك حبات مسبحته الكهرمانية.. لقد كان يومًا مُرهقًا بشدة أمضاه في تسجيل عدة حلقات لبرنامجه الجديد "يلا نصلح حياتنا"..

كان "يحي زيدان" مثالًا للاعتدال كما يصفه الإعلاميون، الداعية الشاب العصري مُمثل الإسلام الوسْطي الجميل.. حتى أن مجلة التايم الأمريكية اختارته من أهم الشخصيات المؤثرة في الشرق الأوسط.. وقد كان يستحق ذلك فعلًا بسبب ذكائه.. فكل خطوة يخطوها محسوبة بدقة.. هو داعية بطعم مدربي التنمية البشرية، وقد أكسب الخطاب الإسلامي إطارًا آخر يُغري بالقبول.. فلم يعتمد الترهيب في مدرسته.. بل على النقيض كان بشوشًا لينًا.. طيلة الوقت يحاول

التقرب من طوائف المجتمع..الشباب بالذات،ولهذا السبب فقد حرص دومًا على ارتداء بذلات إفرنجية، وتنميق لحيته على شكل دوجلاس.. لأنه كان يؤمن أنه قد ولى زمن الداعية الأصولي ذي اللحية الكثة المُنفِّرة الذي يرتدي الغطرة..العابس والغاضب دائمًا.. فهذه الصورة صارت منبوذة بشدة هذه الأيام بالذات بعد صعود داعش ومحاولة ربط هؤلاء الدعاة بالوهابية والبترول الخليجي وهذه المصطلحات الجوفاء التي اعتاد العلمانيون ترديدها..

وقد كان ذكيًّا في طرحه بالفعل..فابتعد عن المناطق الشائكة وركز مجهوداته على إبراز الجانب الإنتاجي للدين، والذي يدعيه بعض المتحذلقين بأسلمة الطموح ولاهوت النجاح..فكان يؤمن بشدة بحديث "المؤمن القوي خير عند الله من المؤمن الضعيف"..

فالمال ليس نقيصة أو خطيئة، والتقشف لن يكون أبدًا الحل في هذا العالم الرأسمالي المتوحش الذي يحترم فقط النقود، ولهذا فقد داوم على ذكر الصحابة الأثرياء أمثال عثمان بن عفان الذي جهَّز جيش العسرة وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص.. إلخ، واستعار مقولة الداعية "الأخ جيم" أن الرسول– صلي الله عليه وسلم– كان أفضل رجل أعمال للتأكيد على كلامه..

مع مرور الوقت امتازت برامجه بخصائص ثابتة متشابهة.. فمثلًا هو لا يُحرِّم أبدًا الموسيقى.. بل على العكس كان يقول دائمًا إنها

غذاء الروح.. فلا مانع لديه أن يقوم مطرب عاطفي أو مطربة معتزلة بغناء تتر الحلقة له، وعندما يهاجمه أحدهم يحتج بقول ابن حزم ويتهم خصمه بالتشدد وضيق الأفق..أيضًا كان يعتمد على العامية في إلقائه، وكثيرًا ما مزج معها كلمات إنجليزية للتماهي مع جماهيره الشابة المختلطة والتي أحيانًا تتضمن إناثًا غير محجبات.. بالإضافة إلي أنه في نهاية كل برنامج كان يحرص دائمًا على فقرة الدعاء.. فهي جزءه المفضل التي يصل فيها إلى ذروة اندماجه.. فيطرق رأسه للأسفل في خشوع وكفاه ممدودتان للأمام.. ثم يلهج بالدعاء حتى يتمادى في التشنج والنحيب.. بعدها يحدق إلى الكاميرا باحترافية مرسلًا نظرة مكسورة مدروسة تخترق القلوب.. لتتهافت عليه آلاف الإعجابات والمشاركات على الفيس بوك من جموع الجماهير المتأثرة..

لكنه رغم ذلك لم ينجُ من النقد وسهام الكراهية..فخصومه داوموا علي اتهامه بأنه يُشبه الوعّاظ البروتستانت..حتى أن أحدهم وصفه بأنه يشبه الداعية الأمريكي البروتستانتي "نورمال بيرل" كما تطرف بعضهم في الوصف فسموه مارتن لوثر الإسلامي..

أما آخرون فاتهموه بأنه قام حول الدين سلعة استهلاكية وقام بتمييعه.. لكنه كان يرد عليهم بقسوة..فيصفهم بالمتحذلقين الفشلة الذين جعلوا الدين داخل قوقعة حتى صار الناس يخشون الاقتراب منه ومن الملتزمين..

فأصبحوا يرونهم ككائنات فضائية ترتدي جلبابًا أبيض قصيرًا وتصرخ باستمرار كما أظهرهم أفلام وحيد حامد..ثم في النهاية يخبرهم بثقة أنه في جهاد مُقدَّس لن يحيد عن طريقه ما دام يصيب هدفه بدقة، وبالفعل في خلال سنوات قصيرة حقق صيتًا هائلًا فأصبح اسمه مقرونًا بنسب أعلى المشاهدات ليصير واحدًا من نجوم المجتمع المرموقين.. فصار موجودًا في كل مكان.. المحطات التلفزيونية.. الإذاعة..الفنادق الكبرى وحتى النوادي والفيلات الخاصة..

فلا يمرُّ يوم إلا وتسمع عنه خبرًا أو ترى له صورة جديدة، والتي كانت غالبًا ما تكون مع كبار رجال الدولة ونجوم المجتمع من أهل الفن والكرة.. حتى أن بعضهم عايره وابتزه بصوره مع سيدات سافرات الرأس.. لكنه لم يلتفت قط إليهم.. بل على العكس استفاد من موقعه وأنشأ البيزنس الخاص به.. فأسّس شركة للخدمات والاستشارات النفسية.. يتبعها خط ساخن يجيب فيه بنفسه عن تساؤلات الهائمين والضائعين..

كما أنه أنشأ شركة أخرى لإنتاج ألبومات غنائية إسلامية تضم (راب) إسلاميًّا وأغاني بالإنجليزية..بالإضافة لامتلاكه في الخفاء محلات تجارية لملابس المحجبات اسمها.. **Taqwa** ..

استقل "يحيى زيدان" سيارته ذات الدفع الرباعي ثم بلهجة صارمة أمر سائقه بالانطلاق الذي استجاب على الفور وهو يقول في

خشوع: "على بركة الله"، وفي خلال دقائق معدودة كانت السيارة تنهب الطريق نهبًا في كوبري 6 المزدحم بلافتات له وهو يقف مبتسمًا ومُلوحًا بيده ليعلن عن برنامجه "يلا نصلح حياتنا"..لينفخ صدره كطاووس شاعرًا بنشوة ساحقة تجتاحه.. فهو الآن نجم الشباك التي تلهث وراءه المحطات الخاصة عارضة عليه الملايين.. بينما هو من منبره يرمقهم باستعلاء وأنامله تفرك حبات سبحته الكهرمانية حتى يستقر على الأعلى سعرًا والأكثر انتشارًا..

أفاق "يحيى زيدان" من أحلام اليقظة عندما أخبره سائقه أنه وصل وجهته أخيرًا.. فترجَّل بحذائه الفاخر ماركة "مارتن دينج مان" ثم أغلق هاتفه الذهبي ودلف الفندق الفخم بتؤدة مبتسمًا وهو يسحب نفسًا عميقًا حالمًا بالاسترخاء..

فكل ما يحتاجه الآن هو جلسة تدليك فرعونية باستخدام الزيوت العطرية المصرية وزيت السوداشي المضاد للشيخوخة مع ماسك رائع للوجه لتفتيح البشرة وحمام بخار منعش.. فهذه اللحظات القليلة هي التي تنجح في تخليصه من السموم اليومية وتشحنه بالطاقة من جديد.. لذا خلع الداعية كل ملابسه، ثم لف حوله وسطه باشكيرًا أبيض ودخل قاعة الساونا!

***

(4)

"الرسام الذي لا مثيل له أخطأ..

البريء العاشر لم يكن بريئًا.."

كانت هذه هي الكلمات التي احتوها الرسالة.. فحاول يوسف الاتصال بهذا الرقم الغريب، لكنه وجد صوتًا نسائيًّا رصينًا يجيبه بالمقطع الشهير..

"الهاتف المطلوب مغلق.. من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق"

فاستقلا يوسف وزميله محمد السيارة وانطلقا بأقصى سرعة نحو المديرية.. في المديرية كانت عقارب ساعة الحائط الدائرية تشير إلى الثامنة مساء..استغرقا في الطريق نصف ساعة فقط..

أعطى يوسف الرقم الغريب الذي اتصل به محمد وطلب منه تتبعه والوصول لهوية صاحبه بأقصى سرعة.. بعدها دلف إلى مكتبه يلهث وأنفاسه متسارعة.. ثم ولج إلى حاسوبه مستثارًا ليكتب في محرك البحث الكلمات التي تم إخباره بها.. بالطبع لم يحصل على نتيجة.. كانت الشفرة هذه المرة أصعب من سابقتها والكلمات تبدو مبهمة للغاية.. لكن يوسف وعى الدرس منذ المرة السابقة.. فقرر أن يجرب شيئًا جديدًا، وكما توقَّع عندما أدخل النصف الأول من الجملة.. "الرسام الذي لا مثيل له" ظهرت له نتيجة.. نتيجة واحدة فقط..

أظهرت نتيجة البحث فنانًا إسبانيًّا من مواليد القرن الثامن عشر يُدعى "دييغو فيلاسكيز"، والذي اشتهر بلقب رسام الرسامين أو الرسام الذي لا مثيل له كما أطلق عليه الفنان الفرنسي "إدوارد مانيه"..

كان هذا الفنان إسبانيًّا جدًّا الصراحة..فشعره طويل أسود منسدل مفروق من المنتصف، وشاربه مبروم لأعلى، ولحيته مثلثة صغيرة تشبه لحية الجدي.. بينما كان ينظر بطرف عينه في عدم اكتراث في البورتريه الذي ظهر له في الموقع.. بالضبط صورة طبق الأصل من سلفادور دالي سوى أن شعره طويل وأنه وُلد قبله بأكثر من قرنين..

كان "دييغو" موهوبًا بالفعل..لذا أصبح في فترة قصيرة الفنان الرسمي للبلاط الملكي، ونتيجة لجودة أعماله وتميزها بالواقعية الحادة فقد وُجدت في متاحف عالمية من أبرزها متحف "ديل برادوا" الإسباني..

أخذ يوسف يتصفح لوحات الفنان الأسباني متربصًا عسى أن يجد أي شيء يلفت انتباهه.. كانت اللوحات مبهرة بالفعل وتعج بالتفاصيل.. ففي اللوحة الأولى ظهرت سيدة عجوز بملامحها الشاحبة القلقة وهي تمسك بيدها قدر من الفخار تقلب فيه بيضة أما في اليد الأخرى فتمسك ببيضة أخرى تتأهب لتحطميها في حافة القدر، بينما يقف أمامها صبي صغير قصير الشعر وهو يمسك في يديه ثمرة شمام وقارورة زجاج ينتظر إعداد الطعام..

لم يشعر يوسف بأن فيها شيئًا مثيرًا فحرك المؤشر نحو اللوحة الثانية المسماة بـ"أسطورة أراكني "، والتي تدور حول حكاية "أراكني" والربة "أثينا" وفساد آلهة الأوليمب..

حيث تظهر في يمين اللوحة أراكني الشابة المجتهدة وهي منهمكة في حياكة أحد المفارش بينما بجوارها تجلس الربة "أثينا " مبتكرة عجلة الغزل وهي متخفية في هيئة عجوز تكتم في صدرها الغيظ لتفوق بشرية عليها حتى أنها لم تنتبه إلى أن رداءها انكشف فكشف عن ساقها الملساء الشابة.. في حين في الخلفية يظهر مفرش كبير تم الانتهاء منه يبين زيوس "والد أثينا " وهو يقوم بإغواء الكثير من السيدات..

أما اللوحة الثالثة فكانت أجملها واسمها "الوصيفات" أو بالإسبانية "لاس مينياس"، والتي تظهر فيها الأميرة الصغيرة مارجريتا بصحبة وصيفاها وحارسها وقزمين وكلب بينما بالجوار يظهر "دييغو" وهو ينظر لها من أعلى مشغولًا برسمها، فيما في الخلفية تظهر صورة الملك فيليب الرابع والملكة من خلال مرآة معلقة على الحائط..

شعر يوسف بملل شديد وهو يتصفح هذه اللوحات والمعلومات عنها فأخذ يمطُّ شفتيه في ملل، وفي عقله تصدح هذه الكلمات..

البريء العاشر لم يكن بريئًا..

البريء العاشر لم يكن بريئًا..

البريء العا..

تبًّا! لقد بدت اللوحات مسالمة جدًّا.. حتى شعر كأنه غرق داخل مستنقع، ويائس من الحل.. لكنه ومع كل هذا الغضب كانت تروس عقله تدور بقوة وفي أوج تركيزه..لا بد أن حل اللغز يكمن في تفصيلة صغيرة داخل هذه المعلومات..حتى التقطت عينه كرادار إحدى الكلمات.. فترجمها على الفور إلى المعنى المطلوب.. ثم صاح وهو يضرب سطح المكتب بقبضته في لهجة منتصرة..

– لقد وجدتهاااااااا.. هذه هي ي ي ي.. هذا هو الحل بالتأكيد..

وقد كان مُحقًّا بالفعل.

***

(5)

شعُرَ الداعية الإسلامي بحالة من الاسترخاء العميق بعد جلسة التدليك التي أمضاها.. لو كان بمقدوره اختيار كلمة تصف حالته الآن لاختار كلمة "النيرفانا"، ورغم أنها كلمة مرتبطة بالبوذية لكنها تصف بنجاح الحالة التي وصل إليها.. فقد نجح بالفعل في شحن طاقات جسده مجددًا والتخلص من كل السموم المتراكمة داخله.. فالآن يشعر بالسلام النفسي للروح، والتسامي.. فوق الجميع..

لكن الكهنة البوذيين يصلون إلى هذه الحالة بعد فترات طويلة من التأمل.. أما هو فيصل إليها عن طريق جلسة تدليك مدفوعة الأجر في أحد فنادق القاهرة الفخمة..

خرج "يحيى زيدان" من الفندق نشيطًا قويًّا كأنه بُعث من جديد، فاستقل سيارته مرة أخرى ليأمر سائقه الذي كان يدخن السيجارة بالانطلاق.. فسأله حائرًا عن الوجهة.. ففكر قليلًا ثم قال في النهاية:

– فلتُشدَّ الرحالُ إلى مدينة الرحاب ..

فابتسم السائق خِفية.. لأنه فهم أنه يشير إلى فيلا زوجته الثانية..

كان الداعية يفكر في إنهاء ليلته بأمسية ساخنة مع زوجته الثانية "شيري" خبيرة التجميل الشهيرة، والتي تزوجها منذ شهرين لكنه تكتم الخبر حتى لا يصبح مضغة سائغة في فم الإعلام وحتى لا تثور عليه زوجته الأولى أم أولاده..تبًّا لأعراف المجتمع البالية! فهو لم يخطئ يقينًا.. أفلم يَقُل المولى في كتابه الكريم:

"فانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاع"

ومن ثم فليس عليه حرج.. فالأنبياء أنفسهم ملكوا العديد من الزوجات حتى رُوي أن النبي "سليمان" تزوج ألف زوجة وأباه "داود" مائة.. فتعدّد الزوجات رخصة منحها الله إياه.. والله يحب أن تُؤتى رخصه كما يُحب أن تؤتى عزائمه، وقد نجحت زوجته الثانية الفاتنة ذات العينين الغجريتين والأنف الإغريقي والجسد الأفعواني في تلبية رغباته دائمًا.. فهي عاهرة سرير من الطراز الأول.. مُهرة جامحة يصعب ترويضها.. فعطرها الممزوج من البرجاموت وخشب الأرز وزهور المانجوليا لا يزال يعبث برأسه.. فيسكره ويطوح به في عوالم ملونة بعيدة جدًا.. فعلى جسدها الناعم الملفوف صارع الشياطين والمهرطقين العلمانيين، وبباطنها غرس راية انتصاره واستدفأ من

زمهرير الدنيا ليخرج بعدها قويًا منتصرًا بعد أن اغتسل بعرقها اللذيذ وتعبَّد في محرابها..

بدت علي ثغر "يحيى" ابتسامة طفيفة وهذه الخواطر الشهوانية تمر في ذهنه.. فتمنى لو حاز البُراق أو صاروخ حتى يشق الطريق فيرتمي في حضنها ويرتع في أراضيها في أسرع وقت.. في هذه اللحظة وصلت السيارة إلى شارع هادىء تصطف الأشجار على جانبيه حتى وجدوا سيارة أخرى تقف بعرض الطريق.. فضغط السائق على بوق السيارة عدة مرات لكن السيارة الأخرى بدت مهجورة..

– انزل يا مرعي، واستطلع الأمر.. لا نريد أن نتأخر أكثر مما تأخرنا بسبب هذا السائق المخمور..

هكذا أمر يحيى سائقه الذي ترجّل مرغمًا..ثم سار في اتجاه السيارة المعترضة مغتاظًا وهو يطلق السباب في داخله.. ليُباغت برصاصة رُشقت في منتصف رأسه.. أردته صريعًا على الفور.. بعدها انشقت الأرض عن شبح على وجهه ابتسامة مخيفة وهو يلوح بالمسدس في اتجاه "يحيى".. فأمسك "يحيى" بالمقود مذعورًا ثم ضغط على دواسة البنزين بكل قوة وهو يحاول التقهقر بسيارته.. لكن المهاجم بادره بإطلاق رصاصات متتابعة في إطارات السيارة،فانفجرت على الفور.. ثم استمرَّ في التقدُّم نحوه في ثقة مخيفة.. كالموت نفسه.

***

(6)

البريء العاشر ..

ظلّت هذه الكلمة يتردد صداها داخل أروقة عقل يوسف.. بالرغم أن الحل بسيطٌ، وكان باديًا أمامه طوال الوقت لكن بسبب توتره فقد عَمِيَ عنه.. اكتشف يوسف ذلك عندما وقعت عيناه على لوحة فيلاسكيز الشهيرة.. Pope innocent x

فالبريء العاشر هي الترجمة اللفظية لاسم البابا..كان البابا إينوسنت العاشر هو البابا رقم 236 في تاريخ الفاتيكان.. أقوى رجال العالم وأكثرهم نفوذًا في القرن السادس عشر بعد أن نجح في بسط سطوة الكرسي الرسولي بفضل سياساته الصارمة..لكن لماذا أخطأ فيلاسكيز؟ ما الذي أخطأ فيه بالتحديد؟ وما المقصود من هذه العبارة؟!

ضغط يوسف على رابط آخر يقود إلى معلومات أكثر متعلقة بالبابا.. فوجد أنه من أسباب شهرة البابا أيضًا هو البورتريه الرائع الذي رسمه له فيلاسكيز.. فاللوحة الأصلية محفوظة في جاليري "دوريا بامفيلي" في روما،والتي يظهر فيها البابا بوجهة الصارم المتورد وحاجبيه المرتفعين الكثين ولحيته الشهباء وهو متربع على كرسي البابوية المخملي الأحمر الموشى بزخارف ذهبية، حيث كان يرتدي لباسًا حريريًّا أبيض يعلوه وشاح أحمر، وكذلك قبعة من ذات اللون تُشبه الطربوش.. بينما يريح يديه على مسنديّ الكرسي.. إحداهما ممسكة بورقة بيضاء، والأخرى خالية، لكن يظهر فيه خاتمه الأسود المشع، بينما يرسل بعينه نظرة ماكرة تنمُّ عن خبثه وذكائه الشديد.. ذكاء الثعالب..

كانت اللوحة صادمة وصادقة إلى أقصى درجة.. لدرجة أن رجال الفاتيكان خشوا أن يغضب البابا عندما يراها لأنها تصوره قاسيًا مُخيفًا.. لكنه عندما رآها إينوسنت العاشر كان له رأي مختلف.. فسعد بها للغاية لأنه رآها واقعية جدًّا ومفعمة بالجلال والهيبة، فأهدى فيلاسكيز ميدالية ذهبية، ثم أمر بتعليق البورتريه في الصالة الرسمية لاستقبال الضيوف..

لكن إينوسنت العاشر بالفعل كان قاسيًا ودمويًّا للغاية..فهو الذي أجَّجَ نيران الحرب الأهلية بين الإنجليز والأيرلنديين، فناهَضَ معاهدة ويستفاليا لتأييد مذهبه الكاثوليكي،كما قام بدعم مذابح المسيحيين ضد اليهود في بولندا.. غير أنه ازدهرت في عهده طقوس مطاردة

السـاحرات وحرقهم بخلاف أنه لم يمنع تجارة الرقيق.. بل يقال إنه وهو عائلته أنفسهم اشتغلوا بها..كما أُشيع عنه أوان حكمه علاقته الآثمة بأولمبيا أرملة أخيه والتي استغلته لتتدخل في قرارات الكنيسة،حتى أنه لما مات لم تحضر جنازته لانشغالها بنهب كنوز البابوية ..

تشبع المتصفح بالنوافذ المفتوحة.. فشعر يوسف بتضخم رأسه من كم المعلومات التي قرأها.. حتى ارتعدت كل حواسه وشعر بمخالب الهول الباردة تعبث في قلبه عندما قادته أصابعه إلى لوحة أخرى مخيفة.. لوحة تعود إلى عام **1953** رسمها فنان أيرلندي شهير اسمه "فرانسيس بيكون" والذي لُقب بفنان الرعب لأعماله المخيفة المهولة..

كانت لوحة زيتية اسمها "دراسة لبورتريه فيلاسكيز للبابا إينوسنت العاشر" والتي اشتُهرت باسم"البابا الصارخ" لأنها أظهرت البابا وهو متربع على كرسيه كأنه داخل قفص حديدي والنيران تحاصر جسده بينما وجهه الشاحب يتلوى ألمًا ويصرخ بعنف خلف القضبان..

لكن يبدو أن فرانسيس بيكون كان مهووسًا بلوحة فيلاسكيز الأصلية فقد رَسَمَ أكثر من لوحة أخرى تحاكي رعب اللوحة الأصلية.. فثمة لوحة ثانية تُدعى "رأس" يظهر فيها الجزء العلوي فقط من جسد إينوسنت العاشر وهو حبيس داخل قفص زجاجي والنيران ناشبة فيه، ولوحة ثالثة أخرى تُسمى "جسد ولحم " يظهر فيها الباب

وهو مُتربع على كرسي خشبي وعيناه فارغتان وجلده مُشوَّه متعفن وهو يصرخ كالعادة بينما تبدو في الخلفية قطعتان كبيرتان من اللحم النيء مشقوقتان عند الضلوع..

شعر يوسف بغصة تعتلج بحلقه وهو يتأمل هذه اللوحات المخيفة فسرت قشعريرة حقيقية في جسده.. لقد بدا فرانسيس بيكون ثائرًا ضد الكهنوت فعذَّب البابا في كل لوحاته..

حينها دخل الرائد "محمد" ليخبر يوسف بصوت محبط أن الرقم الذي منحهم إياه يخصُ شخصًا مُتوفى.. لكن يوسف لم ينبس ببنت شفة.. متجمدًا على مقعده كأنه أصابته لعنة مخيفة.. فقد كان في هذه اللحظة منهمكًا في التفكير في كيفية منع الكارثة المقبلة.. الكارثة التي أدركها حينما رأى لوحات "بيكون".. فالضحية القادمة لن يكون كسواه.. لأنه سيكون رجلًا غير عادي.. رجل دين بالتحديد.

***

(7)

– هل هي خدعة جديدة من السفاح أيضًا؟!

هكذا قال اللواء ضرغام ساخرًا ليوسف وهو ينفث دخان سيجارته..

فرد يوسف على الفور..

– لا أعلم يا سيدي..لكن موقفنا يجبرنا ألا نغفل أي رسالة تأتينا..خاصة أنها كانت صحيحة في المرة السابقة..

ثم أخرج "يوسف" ورقة مطبوعة بالألوان من ملف يحمله.. لوحة "دراسة لبورتريه فيلاسكيز للبابا إينوسنت العاشر" بالتحديد، والتي أظهرت البابا مذعورًا وهو يحترق ويصرخ بعنف..فاتسعت عين اللواء والتقطها منه بحذر وهو يتأملها بمزيج من الحذر والخوف.. لقد كانت اللوحة واقعية ومخيفة للغاية..حتى شعر أنه هو نفسه المسجون.. أحس بحرارة النيران وقرقعتها وهي تلتهم جسده..وصرخة مريعة مدوية

اخترقت أذنه..كانت لوحة شنيعة بالفعل.. فرفع اللواء رأسه، ثم قال بصوت مختنق وهو يحاول التظاهر بالتماسك..

– ما هذه الصورة الوحشية يا حضرة الضابط؟ مَن بحق السماء الملعون الذي رَسَمَها؟!

فأجابه يوسف بلهجة هادئة..

– كما أخبرت سيادتك لقد أرسل لي زارا رسالة جديدة مشفرة، وعندما فككتُ رموزها كانت هذه اللوحة هي الإجابة..

ثم استطرد..

– هذه اللوحة هي لبابا روما في العصور الوسطى.. إينوسنت العاشر..الذي اشتُهر بالدموية والعنف، وهذه اللوحة هي نظرة الفنان الإيرلندي "فرانسيس بيكون" للمصير الذي يستحقه..

طوَّح اللواء بالصورة كأنها تعويذة ملعونة يحاول التخلص منها.. ثم أمسك السيجارة مرة أخرى بيد مرتعشة..

– حسنًا..ما الذي تريد قوله؟!نحن هنا لسنا في كلية فنون جميلة.. ما الذي يريد أن يقوله لنا هذا المعتوه؟! هل تريد أن تخبرني أن بابا الكنيسة المرقسية هو المستهدف هذه المرة؟!

فأجابه يوسف في قلق:

– ربما.. بالطبع بابا الكنيسة أوصى بتشديد الحراسة عليه.. خاصة بعد التفجيرات التي ضربت الكنائس في الآونة الأخيرة.. لكن بقية علماء الدين ليسوا بمنجاة من ضربته..أعني أن رجال الدين الرسميين كلهم في مرمى نيرانه.. شيخ الأزهر، والمفتي، ووزير الأوقاف.. إلخ

تخيَّل اللواء جسد البابا، وهو مُسجًى داخل التابوت والجماهير المحتشدة الغاضبة تحيطه من كل حدب وصوب في جنازة رسمية يتقدمها كبار رجال الدولة.. فارتعد..

جريمة مثل هذه ستكون قنبلة.. قنبلة نووية.. بالتحديد.. لأنها ستنسف السلام المجتمعي وستُصيب الوطن بشرخ عميق..

شعر "ضرغام" بحجر جاثم فوق صدره.. لقد شعر بخوف حقيقي هذه المرة.. فالتقطَ كوب ماء بيد مُرتعشة ثم تجرعه مرة واحدة وهو يسبُّ بصوت مرتفع..

– الوغد ابن ال..هذا المجنون سيجعل الدولة كلها تتأهب استعدادًا لمخططاته المخبولة..

ثم رفع الهاتف على الفور في عصبية وطلب رقم وزير الداخلية.. وأخبره بكل شيء.

***

(8)

كان الداعية "يحي زيدان" مُقيَّدًا على مقعد خشبي بحبال غليظة.. حاول الصراخ لكن كرة ذات أشواك حديدية مغروسة في فمه، فكلما صرخ سالت من لسانه الدماء.. فأخذ يتنقل ببصره بحثًا عن أي ثغرة للهروب.. لكن الغرفة بدت كقلعة محصنة.. فلا توجد ثغرة واحدة.. ليرتد إليه بصره خاسئًا، وهو حسير.. مرّت الدقائق ثقيلة كمتاريس تتحرك ببطء طحنت أعصاب "يحي" حتى بلغ خوفه ذروته حينما رآه.. زارا..

كعادة "زارا" فقد غيَّر القناع هذه المرة.. فارتدى قناعًا أبيض على هيئة وجه جدي ذي لحية طويلة وأذنين طويلتين مسحوبتين وقرنين نحاسيين يبرزان من رأسه، وعلى وجهه تلوح ابتسامة مخيفة..بينما غطى جسده بتي شيرت أسود مرسوم عليه نجمة خماسية حمراء أبرز عضلاته المفتولة..

اقترب زارا وأنفاسه الساخنة القبيحة تلفح وجه زيدان وهو يضحك متهكمًا:

– لماذا ترتجف كالجرذ هكذا أيها الكاهن؟! أين مواعظك؟ أين دروسك؟ أين اليقين يا مولانا؟!

ثم أمسك برأس الداعية حتى نشبت أظفاره في وجهه ثم حركها ساخرًا:

– أووووووه.. أعلم أنك تتأذى بحق بسبب الأشواك المغروسة في لسانك.. أنت لم تعتدْ قط الصمت.. مع أنه نصف الحكمة.. فأنت ثرثار تتحدث بمناسبة وغير مناسبة.. تجلد بكلماتك جلود المذنبين أو هكذا تُمثِّل..مع أنك في باطنك تعلم كم أنك منافق كذاب؟! هل تخشى الموت الآن؟! هل تخشى هادم اللذات ومفرق الجماعات؟! أليس هذا ما كانت مواعظك تدور حوله يا شيخنا المُبجَّل؟!

كانت الدموع تسيل بلا توقف على وجنتيّ الداعية وقلبه يرتجف من الهلع.. بالذات، عندما أدرك الحقيقة المريعة.. فهو الآن بمواجهة القاتل المتسلسل الذي تحكي كل وسائل الإعلام عنه.. السفاح الذي يرتدي قناعًا على هيئة وجه ساتير.. الشيطان نفسه..

استطرد زارا كلامه ساخرًا، وهو مُنتشٍ بمشهد الداعية المُرتعد.. فالتقط نفسًا عميقًا مزهوًا بنفسه..

– ولكن أتعلم ما المشكلة الحقيقية؟! برغم كل هذه الفضائل التي تحاول أن تلبسها فإنك كاذب منافق لا تختلف كثيرًا عن أي لصٍّ فاسد.. الفارق الوحيد هو أنهم لا يعيرون بالًا لظهور فسادهم.. بينما أنت طوال الوقت تحاول وأد رائحتك النتنة عن طريق ارتداء أقنعة مزخرفة وقول ألفاظ فخمة تختارها بعناية..لكني لم أُخدع فيك.. فنظرت إلى شخصيتك في الباطن ووجدتها أنها شديدة القُبح ولا تختلف كثيرًا عن الشياطين.. عامةً لن أكون متحيزًا ضدك.. فلنرَ ماذا يقول زرادشت بشأنك..

كانت بجوار الداعية المقيد منضدة خشبية عليها كتاب وسيف، أما خلفة فيقبع حامل عليه لوحتان.. التقط "زارا" الكتاب ثم تراجع خطوتين للخلف وبدأ قراءته في خشوع كأنه يتلو تراتيل سماوية..

– إن هؤلاء الكهنة لأعداء خطرون، ولا يوجد حقد يوازي ما في داخلهم من ضغينة.. فلا يوجد تنين أشد خطرصا على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية، وها هو يهبُّ مفترسًا في جميع من بنوا مساكنهم علي ظهره..

ثم توقف لحظة التقط فيه أنفاسه.. بعدها استكمل خطابه زاعقًا وهو يرتجف كأنه مؤدٍّ مسرحي:

– لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء الأموات فسربلوا جثثهم بالسواد فإذا هم ألقوا المواعظ انتشرت منها رائحة اللحود..

إنهم أشد الناس خطرًا كالحيوان المفترس.. المنذرون بالموت الدخلاء.. فغدوا إما بين حالتين.. حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب، وما شهوتهم إلا التعذيب عينه، ومع ذلك فإنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء أيها الفضلاء..طامحين إلى امتلاك أماكن في السماء بدلًا من أماكن في الأرض، وإلى الظفر بالأبدية بدلًا من الدهر الزائل.. هذه هي حقيقة روحكم الكامنة، ولكم من بعضكم من يخيل إليه أن الفضيلة هي عبارة عن تشنج تحت سياط الجلود.. غير أن زارا قد جاء إلى جميع هؤلاء المخادعين وإلى جميع هؤلاء المجانين ليقول لهم إنهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئًا، وليس في وسعهم أن يعرفوها..

ثم رفع زارا صوته أكثر وهو يقول بلهجة صارمة غاضبة..

– قد تسترتم بقناع الرب أيها الطاهرون واختبأت دودتكم الحلقية الكريهة داخل قناع الرب..حقًّا إنكم مخادعون، وحتى زرادشت خُدع يومًا ما بمظهركم الخارجي الإلهي، ولم يكتشف أي أفاعٍ تملأ جوف هذا المظهر الخارجي.. إن الرائحة الكريهة تحيط بكم وباحتفالاتكم دائمًا..إن أفكاركم الشهوانية وكذبكم وزيفكم معلقان بالهواء.. لكني الآن بمقدوري قول الحقيقة أيها المنافقون.. فعظامي السمكية ومحارتي وأوراقي الشائكة يجب أن تدغدغ أنوف المنافقين..

ثم ألقى كتابه جانبًا وأمسك الداعية من أنفه وأخذ يُكيل له اللكمات من خلالها.. لكمة تلو الأخرى.. حتى هشمها، وتفجرت

الدماء منها..بعدها تراجع للوراء وهو يلهث من شدة الغضب.. بينما الدماء تغمر وجه "يحيى" بالكامل فشق عليه النظر..

– لقد سمعت بنفسك ما قاله زرادشت عنك أيها المنافق، والآن جاءت لحظة تنفيذ الحكم الجيدة.

ثم اتَّجه للخلف، وأحضر الحامل الجرار الذي يحمل لوحتين.. الأولى هي لوحة "دراسة للوحة فيلاسكيث للبابا إينوسنت العاشر" والتي يظهر فيها البابا جالسًا على كرسيه، وهو يصرخ هلعًا والنار تحيط به.. أما اللوحة الثانية فهي لوحة جديدة، والتي أظهرت شخصًا أشقر شعره يتطاير للوراء يرتدي درعًا حديدية ومن ظهره يخرج جناحان أسودان..بينما هو ممسك بالسيف في يمينه، وبسلسلة حديدية في يُساره، وهو يدهس بقدمه رأس شخص آخر.. كانت هذه لوحة "الملاك ميخائيل" لجويدو ريني التي صوّره فيها وهو يصرع أحد الشياطين الذي تشبه ملامحه البابا "إينوسنت العاشر"!

فقال "زارا" وهو يشير إليهما متهكمًا..

– أنا عادل للغاية، وستعرف قدر عدلي الآن عندما تختار طريقة إعدامك.. فإما أن تحترق بالنار مثل لوحة "فرانسيس بيكون".. أو أبقر بطنك بالسيف مثل لوحة "جويدو ريني"..

كانت عينا زيدان مغرورقتين بالدموع.. كل ما يظهر أمامه رؤى ضبابية فلا يرى من خلال السحب التي تغطي عينه شيئًا.. صدره

ضيق حرج، وروحه ذاتها بلغت الحلقوم.. في هذه اللحظة مرت في ذاكرته القصة التي طالما رواها.. عندما خرج على صحابي يُكني "أبا معلق" قاطع طريق مقنع يريد قتله.. فما كان من الصحابي إلا أن طلب منه مهلة فقط حتى يصلي.. ثم في أثناء الركعات دعا الله بحرقة أن يجنبه شر هذه اللص وهو يقول..

"يا مغيث أغثني.. يا مغيث أغثني".

حتى كرّرها ثلاثة.. فما إن فرغ من صلاته.. حتى جاءه فارس مقنع يحمل في يده حربة ضرب بها اللص ضربة واحدة فصرعه في الحال.. فلما سأله عن هويته أخبره أنه ملاك أرسله الله..

هو الآن بالفعل يبتهل إلى الله بكل جوارحه..لكنه يشك أن يغيثه أو يرسل له ملاكًا لأنه كذب وخادع كثير في هذه الدنيا..

استطرد زارا حديثه ساخرًا:

– لا.. ليس من حقك حتى أن تختار..

فلنترك الخيار للقدر.. هو وحده سيحدد طريقة قتلك.. هاهاهاها..

ثم أخرج عملة معدنية من جعبته وهو يقول..

– لو كانت النتيجة "ملك" سأقتلك مثلما فعل الملاك ميخائيل بالسيف..أما لو "كتابة" فسأحرقك كما فعل فرانسيس بيكون هاهاهاها.

ثم طوح بالعملة لأعلى، ومعها انخلع قلب يحيى.. حتى سقطت على الأرض محدثة دويًا اخترق قلبه كالحربة لتستقر على ظهرها.. ليقول زارا بنغمة مسرحية مهللًا:

– هاللويييا.. هاللويا.. مرحى أيها الكاهن.. مرحى أيها الكاهن.. كتاابة.. هاهاهاها!!!.. كتااااابة.. كتاااااابة..

ثم مط شفتيه وهو يقول بأسًى مصطنع:

– للأسف لقد كان القدر قاسيًا معك يا صديقي.. ستموتُ محترقًا..

ثم هُرع ليلتقط دورقًا بلاستيكيًا من فوق المنضدة الخشبية، وسكبه كله على جسد يحيى وهو يدندن منتشيًا، حتى إذا ما فرغ منه أخرج عبوة ثقاب من جعبته.. لينتزع منها عودًا واحدًا وهو يلوح به في وجه يحيى..

– هاهاهاها.. بالتأكيد أنت الآن أسعد إنسان على وجه الأرض.. لأنه خلال لحظات يسيرة ستحلق روحك إلى الملكوت وسيتحول جسدك الجميل إلى لحم مشوي.. هاهاهاها!!!!

ثم أشعل النار في جسده فصرخ يحيى عاليًا –رغم الأشواك المحشورة في لسانه– صرخة تقتلع القلوب.. كالحيوان الذبيح.. بينما فرد زارا ذراعيه وهو يشاهد النار تلتهم جسد الداعية وصوته يهدر..

– إني سأعصف كالريح الصرصر علي الأرجاس فأخمد أنفاسهم بأنفاسي ..

ذلك هووو المقدووووووووووور.

***

5

أبوللو

(1)

15 يناير..

كانت صدمة المقدم يوسف عظيمة.. فمقتل الداعية "يحي زيدان" شكَّل ضربة قاصمة له ولفريقه، والذي لا تزال صرخاته وهو يحترق تتردد في أذنه.. مشهد شنيع لم يَرَ مثيلًا له إلا في أفلام الرعب ومشهد حرق الداوعش للطيار الأردني "معاذ الكساسبة".. مما وطّد لديه الشعور بأنه تائه في قفر خاوٍ.. كالغريق يبحث عن أي قشة يعلق بها..

لذا فهو الآن في مكتب الطبيبة "ياسمين الكيلاني" بعد أن اتصل بها هاتفيًا وحدَّد معها هذا الموعد لدعوتها للعمل معهم في القضية في سرية لبراعتها وصيتها في مجال علم النفس الجنائي.. فإذا كانت الأدلة الجنائية قاصرة.. فليس أمامهم سوى أن يسلكوا طريقًا آخر غير معهود.. طريق الأدلة النفسية*..

بعد قرابة ربع ساعة من الجلوس منفردًا أخيرًا دخلت الطبيبة "ياسمين كيلاني" ترفل في بذلتها الزرقاء وقميصها الأبيض الساتان.. كانت "ياسمين" أستاذًا مساعدًا في كلية الطب.. ذات جسم نحيف يميل للقصر.. محجبة.. هادئة الطباع.. بشرتها بيضاء كالثلج..عيناها تشعان ذكاء ملحوظًا لم تنجح عويناتها الطبية في إخفائها.. فنهض "يوسف"لتحيتها مبتسمًا..لاحظ أن خنصرها خاوٍ فلا يوجد به خاتم زواج أو خطوبة.. فقال وهو يصافحها بودٍّ..

– أنا المقدم يوسف ضابط في مباحث مكتب العاصمة الذي اتصل بكِ بالأمس..

فابتسمت "ياسمين" ابتسامة واسعة حتى بدت غمازتاها ثم أشارت له بالجلوس..

*بشكل عام.. استعانة الشرطة بعلماء النفس والأطباء النفسيين ليست بالأمر الجديد.. ففي بعض هيئات الشرطة الضخمة مثل الإف بي آي والسكوتلاند يارد يوجد أطباء نفسيون يشاركونهم العمل في الفرق الجنائية.. حتى أنه تم تسمية تتبع الجاني عن طريق الأدلة النفسية باسم التمميط الجنائي أو **criminal profiling** .. طبعًا هذه الأداة النفسية حازت اهتمامًا كبيرًا في المسلسلات والأفلام الأجنبية، وكانت ركنًا أساسيًّا فيها مثل فيلم **silence lamp** على سبيل المثال.

والتنميط النفسي باختصار يهتم بالتعرف إلى الخصائص العقلية والعاطفية والمواصفات الشخصية للمجرم عن تحليل نوع الجريمة وطريقتها، فيتم تحديد الجوانب المختلفة لشخصية المجرم من خلال خياراته قبل وقوع الجريمة وفي أثنائها وبعدها،ثم يتم الجمع بين هذه المعلومات مع التفاصيل الأخرى ذات الصلة والأدلة المادية الموجودة، ومن ثم مقارنتها بخصائص أنواع شخصية معروفة لتكوين وصف فعال للجاني..

وقالت بنبرة دبلوماسية:

– تفضل يا سيادة المقدم..يمكنك الحديث الآن بحرية..ما الموضوع الذي أردت أن تحدثني بشأنه؟!

أرجو أن تلخص الأمر لأنه بعد نصف ساعة لديّ محاضرة؟!

كان يوسف قد حسم أمره.. يجب أن يضمها لفريقه بأي طريقة.. فمنذ وفاة زوجته وابنته في الحادثة لم يعد يعبأ بأي شيء يخصُّه.. لكن الأمر الآن أصبح أكثر من ثأر شخصي.. هي قضية تتعلق بها أرواح الكثيرين الذين لا يكف هذا المختل عن حصادها بمنجله.. فيجب أن يوقفه بأي ثمن.. حتى لو كلفه الأمر حياته ذاتها..

لوهلة تخيل "يوسف" أن ابنته بفستانها الأبيض تقف بجوار الطبيبة وتبتسم له، أراد أن يناديها ويعانقها لكن أدرك أن هذا غير حقيقي.. فاستجمع شتات تركيز وركز نظره على وجه الطبيبة ثم قال بلهجة تحمل الكثير من الصدق والجدية..

*المرة الأولى التي استخدم فيها التنميط الجنائي كانت قضية السفاح الشهير "جاك السفاح" الذي اشتُهر بقتل المومسات في القرن التاسع عشر، حينما حاول الدكتور" بوند" إعادة بناء مسرح الجريمة وتفسير نمط سلوك الجاني حتى كوّن صورة بدائية عن السمات الشخصية للجاني والتي ساعدت في تحقيقات الشرطة. فذُكر في ملف التنميط أن خمس جرائم من أصل سبع في المنطقة ارتكبها شخص واحد بدون مساعدة، ثم وصفه بأنه قوي بدنيًّا وذو رباطة جأش وجسارة.. ثم استطرد فقال إنه على الأغلب في منتصف عمره ومهندم اللباس ولربما يرتدي وشاحًا لإخفاء الآثار الدامية من هجماته في الأماكن المأهولة، بالإضافه لكونه شخصًا وحيد غريب الأطوار حتى أنه قد يعاني حالة تدعى بفرط النشاط الجنسي.. ثم ختم مذكرته في النهاية باعتقاده أن لدى الجاني معرفة بعلم التشريح لذا فهناك احتمال كبير كونه جراحًا أو جزارًا.

– حسنا بدون ثرثرة.. لقد شاهدت أكثر من لقاء تلفزيوني لك في التعقيب على جرائم السفاح المتسلسل، وقد أعجبتني طريقة تحليلك بشدة.. لن أكون كاذبًا.. أنت تعلمين أن هذا النوع من الجرائم غير شائع في منطقتنا العربية، ومن ثم خبرتنا فيه قاصرة بعض الشيء.. لذا فإنني أظن أن إجراءات البحث العادية بحاجة إلى قدر كبير من التطوير حتى نستطيع الإمساك به.. بمعنى صريح.. نحتاج إلى خبراتك في التحليل النفسي.

سطعت في عين الطبيبة نظرة مترددة.. بدت لوهلة أنها تحاول أن تُوازِن الأمر ثم قالت في النهاية..

– صدقني.. أنا مشغولة جدًا هذه الفترة.

لكن يوسف عاجَلَها على الفور ونبرة كلامه تحمل بعض التوسُّل..

– نحن نحتاج إليك جدًا يا دكتور.. أرواح الكثيرين ربما تكون متعلقة بإجابتك..

ثم أمسك بقلم وكتب على ورقة بيضاء رقمه..

– عامة هذا هو رقمي الخاص.. أرجو أن تفكري في الأمر جيدًا وأنت حرة في اختيارك..

ثم غادر سريعًا.. بعدها التقطت الطبيبة الورقة وهي تنظر مليًا في رقمه.

(2)

نهض زارا من فوق مقعده المخملي، وهو يتأمل بسعادة الصور المعلقة على الجدار.. لوحات غاية في البشاعة.. كأن الشيطان ذاته هو من أهم برسمها.. أعمال لأشهر الفنانين على مدار التاريخ.. سلفادور دالي.. إدوارت دي مونك.. فرانشيسكو جويا.. بيتر بول روبتر.. سلفاتور روسا.. أوتو راب..هينري فيوسيلي.. إلخ من هؤلاء العمالقة.. كان ينظرُ إليها مَشدوهًا.. عيناه جاحظتان تكادان تفلتان من محجرها..كان يشعر أن هذه اللوحات تكلمه..كل واحدة تحاول أن تغريه وتعرض عليه مفاتنها كالنساء حتى يختار واحدة منها وكأنها تقول له..

– أرجوك يا سيدي.. ضمني إلى مجموعتك.. ارسمني على الواقع أيها الحكيم المقدس..

ومع أنه كان حائرًا حول أيها يختار فقد أحسَّ بنشوة عارمة تعتري جسده.. قريبًا سيحقق أحلام نيتشه وزارا القديمة.. هو الآن في خطى ثابتة نحو التحول.. نحو الإنسان الفائق.. أعلى المخلوقات وأعظمها.. ذروة التطور كما ظنَّ داروين..

تعلقت عين زارا بلوحة "التنين الأحمر العظيم" لويليام بليك.. بجسد التنين المفتول، وذيله القوي، وأجنحته العملاقة.. كانت مثالًا رائعًا للقوة.. لوحة في منتهى الإبداع والجمال.. لطالما كان زارا منبهرًا بهذه اللوحة..لكنه ضحك في سِرِّه عندما تذكر فيلم "التنين الأحمر" الذي كان يروي عن قاتل متسلسل آخر يراسل "هانيبال لكتر "ومأخوذ بهذه اللوحة متصورًا أن كل جريمة قتل يرتكبها هي خطوة ليتحول لهذا التنين.. لكنه ليس بهذه السذاجة..الإنسان الفائق بالفعل حقيقة وليست خيالًا.. فالإنسان بصورته الحالية ما هو إلا حبل بين الحيوان والإنسان الأعلى..كما أنه ليس مجرد قاتل متسلسل يسعى للتطور الخارق.. بل هو أعظم فنان ظهر على هذه الأرض.. المبعوث المقدس الذي يُقدِّم أروع متحف للوحات حية في التاريخ.. هو ببساطة غمامة.. لكنها ليست غمامة رحمة..بل غمامة حاملة للصواعق.

نقل "زارا"عينيه إلى لوحة بشعة أخرى ثم تقدَّم نحوها ببطء وعيناه تتحرشان بها بشهوة.. حسنًا.. لقد اتخذ قراره.. هذه هي تحفته الجديدة.

***

(3)

جلس يوسف في مكتبه مفعمًا بالقلق ينتظر مكالمتها في أي لحظة كطالب ينتظر نتيجة امتحانه،ساقه تهتزُّ في حركات لا إرادية متتابعة.. يودُّ لو يسافر عبر الزمن حتى يعرف جوابها.. أخذ يزجي الوقت في تصفُّح ملفٍّ المقاطع المرئية للمجرم.. الملف الذي مساحته تزداد باستمرار والآن يضم 4 مقاطع عالية الجودة.. بداية بالفنانة مريم عزت وانتهاء بالداعية يحيى زيدان.. ما يزال يذكر رد فعل رئيسه اللواء "ضرغام" الذي التقط أنفاسه عندما اكتشف أن رجل الدين المقتول هو هذا الداعية.. كان متخوفًا بشدة من أن يكون المقصود البابا رأس الكنيسة الأرثوذكسية.. وقتها كانت ستكون كارثة بحق، وهذا شيء إيجابي لأنه يثبت أن المجرم لا يلتزم حرفيًا باللوحة وإنما يطوعها لسيناريو خاصٍّ به..

الغريب في الأمر أنهم إلى الآن لم يجدوا عينة واحدة غريبة يمكن عن طريقها فحص الDNA ومطابقته بما لديهم من مجرمين سوابق وإن كان هو يشك بأنه لديهم في السجلات من الأصل.. فهذا الشخص ذكي للغاية لدرجة العبقرية..لدرجة أنه أحيانًا يشعر كأنه يتعامل مع كائن غير آدمي.. ربما زارا هو الرجل الخفي الحقيقي بطل رواية "جورج هربرت ويلز"..فحتى في الجريمة الأخيرة.. وجدوا سيارة الداعية الفارهة على قارعة الطريق أبوابها مفتوحة، وداخلها جثة القائد مرتمية على المقعد الأمامي وفي منتصف جبهته رصاصة غادرة عيار 9 مم.. بعد ذلك عرفوا أن آخر مكان كان يقصده هو الفندق وأنه كان في الطريق إلى زوجته الثانية..

طبعًا الصحافة الصفراء اقتنصت خبر زوجته الثانية فورًا، فلم يراعوا حرمة موته وتمادوا في النهش في لحمه حتى يحققوا أكبر حجم من المبيعات.. أما الفيديو نفسه فكان مرعبًا بحقٍّ.. فظهر فيه "يحيى زيدان" وهو يصرخ من الألم والنار تلتهم جسده بينما السفاح المجنون يتلو مقاطع شعرية من كتاب "هكذا تكلم زرادشت" بلا أي مبالاة..

لو كانت الشهرة بغية هذا المخبول فقد نجح.. فقد تعدت مقاطعه مئات الملايين في فترة وجيزة حتى تجاوزت مقاطع أغاني لأديل ذاتها..

شعر يوسف بصداع شديد يعبث برأسه.. كأنما غشيته غمامة ضبابية.. رائحة حريق بشعة تنفذ إلى أنفه.. حلقه جافٌّ كجلود العظايا.. قطرات عرق غزير تنسدل على جبهته.. وخوف غير مبرر

يستولي على قلبه..كلا ليس الآن..فأخرج من جعبته أقراص الديباكين ويده ترتجف ثم تجرع واحدًا منها و..

كان يوسف يقود سيارته الدايو وزوجته تثرثر معه في أمر ما.. بينما بالخلف ابنته تضحك وهي تلهو مع دمية باربي.. كان الجميع سعيدًا.. حتى اكفهرت السماء فجأة وامتلأت بالغيوم واصطبغ لونها بالأحمر القاني.. ثم برزت بجواره شاحنة نقل ضخمة كأنها خرجت من تحت الأرض وصدمتهم بقوة.. فأطاحت بسيارته بعيدًا التي انقلبت عدة مرات في الهواء.. ثم أُسدلت أمام عينه ستارة سوداء، وعندما استعاد الوعي وجد نفسه يحملونه على محفة مغمورًا في الدماء وأبواق سيارات الإسعاف تدوي كالنائحات،بينما في الخلفية سيارته مسحوقة كعلبة صفيح.. وعلى مقربة منها جثتان تمت تغطية وجهيهما بملاءتين ملطختين بالدم.. حينها أدرك ما حدث..فأجهشت عيناه بالدمع وأخذ يصرخ بكل قوته كالمجانين.. يصرخ من أعمق نقطة في روحه.. يصرخ ويصرخ ويصرخ..لكن هذا لم يغير في الأمر شيئًا.. فقد فقدهما للأبد..

أفاق يوسف ورأسه ثقيل كأنها تزن أرطالًا من الحديد..كانت عقارب الساعة تُشير إلى الثامنة والربع مساء.. يبدو أنه فقد الوعي لأكثر من نصف ساعة.. فمسح بكمه خيط لعاب سال من فمه ثم أرجع ظهره للوراء.. تبًّا لهذه النوبات السخيفة! لا يوجد أحد من زملائه أو رؤسائه يعلم بما حدث له.. منذ هذه الحادثة اللعينة وحياته

تغيرت.. بل حياته انتهت وهو الآن أنقاض حية.. يعيش كالروبوت.. بلا هدف في الحياة.. القبض على أكبر قدر من الأوغاد أضحى تسليته الوحيدة في هذا العالم.. كان القدر قاسيًا عليه بالفعل.. فَقَدَ عائلته كلها بسبب قائد أرعن..

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يتذكر..كانت ابنته صغيرة للغاية.. خمس سنوات فحسب.. كانت هي أغلى ما لديه..كم يشعر بالحنين إليها! إلى قبضتها الناعمة، وجلدها اللين،وعينيها العسليتين اللوزتين.. وابتسامتها التي تجعله أسعد إنسان في الوجود..لكنه نجا.. نجا بمفرده.. ليعيش وحيدًا محكومًا عليه بعذاب أبدي.. ميت يمشي على الأرض..

في هذه اللحظة رن هاتفه فانتشله من خواطره.. ليجد شاشة هاتفه يضيء برقمها.. فأجاب في شغفٍ:

– مرحبًا يا دكتور.. أتمنى أن تكوني قد وافقتِ أخيرًا ..

فجلجلت ضحكاتها في الناحية المقابلة ثم قالت..

– هاهاهاها.. هل تعلم أن جملة "but you are free أو أنت حر "وجدت أكثر من 42 دراسة نفسية أنها تضاعف معدل موافقة الطرف الآخر على أي طلب.. ربما لأن الإنسان عنيد بطبعه ويحب الشعور بأنه يملك زمام أمور نفسه.. كما أنها تشعر خصمك بتأنيب الضمير وتلعب على وتيرة الندم.. حتى أنهم صنفوها من أكثر طرق الإقناع وأطلقوا عليها اسم byaf

فضحك يوسف تلقائيًا.. هذه المرأة حديثها جذاب بالفعل..

– معلومة جديدة.. أنتِ موسوعة علمية بحق.. صدقيني أنا سعيد للغاية لأنك ستشاركينني في هذه المهمة الصعبة، وأنا متفائل للغاية بأننا سنؤدي عملًا رائعًا.. متى يمكننا البدء؟!

فأطلقت ضحكة جديدة دغدغت أذنه وهي تقول:

– هاهاهاها.. يمكنك الآن لو تريد..

– حسنًا.. سأحضر لك ملفًا به كل الأمور المتعلقة والدلائل التي وجدناها حتى يمكنك دراسته وإطلاعي على رأيك.. يمكنني إحضاره لك لو وافقتِ..

– موافقة.. أحضره إلى منزلي.

– ما العنوان؟!

ثم سجّل يوسف العنوان بدقة، وهو لأول مرة يشعر بالأمل.. حسنًا.. لقد تغير الأمر.. لن تكون مهمة المجرم سهلة بعد الآن.

***

(4)

صعد زارا إلى المقصورة العلوية في دار الأوبرا.. موقع يتيح له رؤية أفضل ليبصر كل ما حوله.. كانت الرؤوس أمامه تتحرك وتتلفت يمينًا ويسارًا كالدجاج.. رؤوس صلعاء وشعر غزير وشعر خفيف، وحجاب، وشعر معقوص لأعلى، وشعر قصير.. هو أيضًا كان متأنقًا للغاية.. فهذه الحفلة ينتظرها منذ زمن بعيد..

فعندما علم بقدوم الموسيقار العالمي "إبراهام لويس" أصر على حضور حفلته مهما تكن النتيجة..هذا المايسترو العالمي الذي تجاوزت شهرته الحدود والمحيطات.. حتى تعدت "أندريه ريو" ذاته..

عندما ظهر "أبراهام لويس" بحلته السوداء البديعة، وقميصه ناصع البياض، وشعره الرمادي الذي ينسدل على كتفيه ضجَّت القاعة بالتصفيق.. حتى شعر كأن زلزالًا مقياسه 7 ريختر ضرب القاعة.. انحنى الموسيقار بطريقة مسرحية، ثم شكر الحضور بلهجة إنجليزية

فخمة..فأعرب عن سعادته بزيارة مصر مُشيدًا بحفاوة الترحاب وكرم أهلها.. حتى قال إنه لم يزر بلدًا جميلًا مثلها وأنها مهد الحضارة فعلًا، ثم ثرثر قليلًا عن زيارته للأهرامات الشامخة والتحف الفرعونية الخلابة في المتحف المصري التي ألهمته قطعة موسيقية حالمة جديدة..

ولكن حتى ذلك الحين قال إنه وهو فرقته الموسيقية سيقومون الآن بعزف أغنية السعادة **Ode to joy*** .. الحركة الرابعة من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن..

خفتت الأضواء الباهرة. وخيم الخشوع علي الصالة..لدرجة أنك لو ألقيت إبرة ستسمع دويها.. ثم في خلال ثوانٍ بدأ العزف.. بدأت الجوقة في الغناء مع تصاعد نغمات الموسيقا.. كانت أصوات الكمان والمزامير والطبل والأبواق الصاخبة مدوية.. فضخت في جسد "زارا" جالونات من الأدرينالين والإندورفين..

---

* تعدُّ هذه المقطوعة من أشهر القطع الموسيقية في التاريخ حتى أنها أضحت النشيد الرسمي للاتحاد الأوروبي.. كما أنها استُخدمت في مناسبات عديدة.. فأنشدها المتظاهرون ضد الديكتاتور التشيلي بينوشيت.. والطلبة الصينيون في ميدان تيانانمين. وقدمها الموسيقار ليونارد بيرنشتين في احتفالية بعد سقوط جدار برلين.. كما أنها تعزف في حفلات اليابان سنويا في ديسمبر تخليدًا لذكري تسونامي **2011**..

كلمات قصيدة الفرح ذاتها كتبها فريدريك شيللر.. والموسيقا من تأليف بيتهوفن الأسطورة بالطبع وهي تعد أروع ما لُحن..

Joy, beautiful spark of divinity، أيتها السعادة.. أيتها الشرارة الإلهية..

Daughter from Elysium، المنبثقة من جنة الفردوس..

We enter, drunk with fire، إنا قادمون إليكِ يغمرنا وهجك..

Heavenly One, thy sanctuary ندلف إلى معبدك المقدس..

Your magics join again فقد أعاد سحرك روابطنا..

All people become brothers ليصبح كل البشر أخوة..

Where your gentle wing abides حينما ترف أجنحتك الرحيمة..

شعر زارا بخفة في جسده..شعر بروحه تحلق مع هذه الألحان السماوية.. كأن أجنحة نبتت له..شعر بالارتقاء.. بالسمو.. بأنه يرنو نحو المجد..فأغمض عينه من فرط النشوة وهو يحس بقوة رهيبة تضعضع داخله.. ثم أخذ نفسًا عميقًا وهو مندمج معها..

استمرت الموسيقا في التصاعد..في الانفجار..حتى توغلت داخله.. بل داخل مركز الأرض ذاتها.. كان يتخيل الكون ذاته ومخلوقاته تغني معه في هذه اللحظة.. الحيتان،النوارس،الأفيال، القرود، التماسيح، الغزلان، وحتى الأسود.. هذه هي فعلًا ترتيلة سحرية.. ترتيلة الحب والسلام، ومع ذلك فقد حركت في أحشائه شيئًا آخر.. شيئًا يعبث داخله، ويتمدد وهو يحاول الخروج من بيضته..

ذروة التطور.. الإنسان الفائق الذي يسعى للتحرر داخله..

All creatures drink of joy At nature's breast

كل المخلوقات تتغذي بالسعادة من ثدي الطبيعة

Just and unjust Alike taste of her gift

الصالح والطالح يتذوق من هديتها

She gave us kisses and the fruit of the vine,

فمنحتنا القبلات والكروم

A tried friend to the end.

فهي الصديق الحقيقي حتى في الموت

Even the worm has been granted sensuality,

حتى الدودة منحتها البهجة

And the cherub stands before God!

والملائكة تقف صفًّا أمام الإله

الآن بدأت الدموع تسيل علي وجنتيه.. ينشج بلا توقف.. لقد انكشف غطاؤه فصار يرى الحقيقة الآن.. هو بالفعل في الأعلى يرى كل شيء.. يرى كل ما حدث في تاريخ هذا الكون السحيق.. فرأى آدم تتحسس أنامله وجه حواء لأول مرة، قابيل يطعن هابيل بمديته الغدارة، نوح على سفينته.. ينظر إلى الجبل المغمور بالماء، ويبكي، وإبراهيم يقتادونه إلى النار..

الآن فقط يرى كل شيء.. أطلانتس تغرق، أفلاطون يتجول في حديقته، وخلفه تلاميذه، يوسف يهبط إلى البئر، أحمس يرتدي زي الحرب، ويُقبِّل يد أمه، الإسكندر ينحني لآمون، وكليوباترا تضم الكوبرا إلى صدرها..

الآن فقط يرى كل شيء.. موسى يُلقي عصاه، توت عنخ آمون يسقط من فوق عجلته الحربية، يونس يلتقمه الحوت، بلقيس تكشف عن ساقيها، وتدخل الصرح، دانيال يتكلم، ونبوخذ نصر ينصت في انبهار، مريم.. صامتة، وتشير إلى طفلها عيسى، وهيباتيا.. يسحلونها في شوارع الإسكندرية..

الآن فقط يرى كل شيء.. محمد في حراء يظهر له الناموس لأول مرة، عمر في خطبته يصيح بأعلى صوته، وسارية وجيشه يتجهان نحو الجبل، طارق بن زياد يأمر بحرق سفن جيشه، ريتشارد يجثو على ركبتيه والبابا يتلو الصلوات ليباركه في الحرب المقدسة، وقطز يلقي خوذته.

الآن فقط يرى كل شيء.. جاليليو ماثل أمام المحكمة، الجماهير الفرنسية تقتحم حصن الباستيل، نابليون يصل المنفى، لينكولن يصعد إلى منصة التتويج وسط تصفيق الحشود، وراسبوتين يتجرع من الكأس المسمومة.

الآن فقط يرى كل شيء.. هتلر يُصوِّب مسدسه إلى صدغه، اليهود يرقصون على أنغام الهافا ناجيلا، أرمسترونج يهبط على القمر، الطائرة تصطدم بالبرجين، بوعزيزي أمام مبنى البلدية يمسك بعود كبريت..

انتهى العزف، فنهض الجميع أنفاسهم مبهورة حتى ضجت القاعة بالتصفيق.. هو نفسه صفق بعنف حتى آلمته يداه وانسكبت الدموع الغزيرة على وجنتيه.. يا للروعة! هذه الليلة من أسعد ليالي حياته.. يجب أن يحصل على توقيع "إبراهام".. بأي ثمن..

بأي ثمن.

***

(5)

كان يوسف في طريق العودة بعد أن أعطى الطبيبة ملفًا ملخصًا عن القضية لاستثارتها وإغرائها حتى تنضمَّ إليهم..في لحظة شعر بأنه يعيش أجواء رخيصة مثل الأفلام المصرية، عندما يظهر ضابط المخابرات ذو الشارب الغليظ والصوت الرصين وهو يحاول تجنيد أحدهم فيحدثه عن مصر ودقة مهمته وكل هذا الكلام.. لكن بالفعل دورها قد يكون له أهمية قصوى، ومن يعلم ربما تقوده إلى شيء..

مَرَّ يوسف من إشارة روكسي المزدحمة ثم ضغط دواسات البنزين بقوة فانطلقت السيارة سريعًا.. بينما عقله يعمل كالآلة يراجع خيوط القضية حتى أضاءت شاشة هاتفه معلنة وصول رسالة جديدة.. فأبطأ سرعة سيارته، وركنها على جانب.. ثم التقط هاتفه وفتح الرسالة..

كانت كالعادة رسالة جديدة من زارا.. رسالة بها جملة واحدة مبهمة.. جملة واحدة مخيفة..

لعنة أبوللو ستحل من جديد.

***

قام يوسف بتنشيط الإنترنت على هاتفه، ثم ولج إلى المتصفح وأدخل جملة "لعنة أبوللو" في خانة البحث..

كالعادة.. لم يحصل على إجابة مباشرة.. لكنها كانت مجموعة من الشذرات،تتراوح بين أبوللو الإله الإغريقي، وبرنامج أبوللو للفضاء، ومدرسة أبوللو الأدبية الشهيرة.. فقرر اختيار الهدف الأول.. لأن هناك هاجسًا أخبره داخله أنه سيجد مغزاه هناك..

كانت المعلومات المذكورة تعرف أبوللو بأنه إله الشمس عند الإغريق.. لكنه لم يكن هكذا فحسب.. بل ذكرته بصفات أخرى.. فهو إله الموسيقا،والرماية،والشعر،والرسم،والنبوءة،والوباء والشفاء، والعناية بالحيوان، والحراثة، والذي ظهر في الصور كرجل وسيم أشقر ذي شعر طويل وعلى رأسه إكليل غار.. أحيانًا يمسك بقوس وسهم.. وأحيانًا أخرى يمسك بقيثارة يعزف عليها في اندماج.. لذا فقد اتخذ الإغريق والرومان منه رمزًا للرجل الشاب المثالي في شكله ونزاهته وذكائه وقوته..

غير أن خصال أبولّو لم تكن خالية من قسوة،إذ إنه قيل إنه اشترك في قتل أطفال "نيوبي" ملكة طيبة.. كما أنه اشتُهر بمغامراته العاطفية ومزاجه الحاد.. فكلما طارد أنثى ولم تستجب له غضب عليها ولعنها ومسخها إلى صورة بشعة.. فحول "كلايتي" إلى زهرة عباد الشمس.. "ودافني" إلى شجرة الغار..

بالإضافة إلى أنه كان نرجسيًا ديكتاتورًا لا يقبل المنافسة..فقام بسلخ خصمه "ميداس" لأنه تفوق عليه في عزفه، ومسخ أذن الملك "مارسياس" إلى أذني حمار لأنه حكم بتفوق "ميداس"..

انطلق يوسف بسيارته مُحبطًا، وهو يعض شفتيه من الغيظ.. تبًّا! لم تقده هذه الترهات الأسطورية إلي شيء..كان وقتها على كوبري 6 أكتوبر عندما لمح لوحات إعلانية متتالية تعلن عن حفلة العازف الشهير "إبراهام لويس"..حينها بزغ في رأسه هاجس مرعب.. فهبط بسيارته من أقرب مَنزل..ثم قام بتغيير اتجاهه، وهو يضغط على دواسات البنزين ليزعق محرك السيارة بكل قوة..

نحو دار الأوبرا.

***

(6)

نفذت إلى أذن الموسيقار "إبراهام لويس" نغمات موسيقية تصدر من جرامفون أو شيء من هذا القبيل.. كانت هذه الألحان يعرفها جيدًا.. لقد عزفها مرة واحدة في أثناء حفل له في إيطاليا بعدها اتخذ عهدًا على نفسه ألا يكررها في حفلاته.. لأنه شعر معها بخوف مبهم تسلل إلى قلبه..كأنها تتضمن نوعًا من القوة الشريرة..بل بالفعل هناك شيء شيطاني يكمن فيها.. كانت هذه قطعة أغنية "الموت "التي لحنها "شتروس" والتي شكلت جزءًا من سيمفونيته "هكذا تكلم زرادشت" والتي ألفها بعد أن استلهمها من الكتاب ذاته.. هذه السيمفونية التي حققت نجاحًا ساحقًا حتى أنها اعتبرت ميراثًا مهمًّا اشتُهرت به ألمانيا النازية لدرجة أن المخرج الشهير "ستانلي كوبريك" استخدم مقدمتها في الفيلم الرائع "أوديسة الفضاء 2001"..

كان اللحن متداخلًا جدًا..فقد صاغ بصدق الصراع الدائر داخل نفس "زارا".. صراع عبرت عنه ببراعة الهزة الموسيقية التي أصدرتها آلات النفخ النحاسية مع نحيب الفيولات.. لدرجة أنه شعر كأنه يسير فعلًا بين أطلال المقابر والهياكل والأشلاء ملقاة على قارعة الطريق بالفعل..

كانت السماء صافية جدًّا يبرز في منتصفها القمر الدموي بينما "إبراهام لويس" بعد أن كان منذ أكثر من سويعات قليلة يقف على مسرح دار الأوبرا المصرية والحشود تصفق له في جزل أصبح الآن في مأزق حقيقي لأنه مقيد إلى شجرة صنوبر مقلوبًا رأسًا على عقب بفعل مجهول.. كان "لويس" يلتقط أنفاسه بصعوبه شاعرًا بأن رئته ومعدته يمكنهما أن يتدليا من فمه في أي لحظة.. ثم ازداد شعوره بالخوف حتى استحال إلى هلع مع الهواء الذي كان يصفع جسده العاري.. فجأر بكل عنف..

- Heeeeeelp.. ..Heeeeeeeeeelp

لكن للأسف ذهبت صرخاته بعيدًا في الآفاق سُدًى ..

هنا سطع في رأسه هاجس مضحك والدموع تطفر من عينه.. عندما قرأ عن الموضوع للمرة الأولى ظن أن الأمر مضحك.. فتذكر هذه المذيعة الشقراء التي سألته أثناء حوار تلفزيوني عن أكثر شيء يخيفه، ليجيب بكل سخرية أنه يخشى أن يلحن أي سيمفونية تحمل

رقم "تسعة".. لكن يبدو أن الأمر حقيقي وهو الذي سخر من ذلك دون وعي منه..

تبًّا! يبدو أن لعنة السيمفونية التاسعة لعنة حقيقية بالفعل*.. فسب "لويس" في سره "بيتهوفن" وكل الموسيقيين والرقم "تسعة" وهو ينشج بعنف.. ثم ارتعد كالممسوس عندما لمح من بعيد شبحًا أسود يحملق فيه بلا اكتراث.

***

*هناك أعداد لا تُحصى من الموسيقيين الذين كانت آخر أعمالهم تحمل هذا الرقم.. من أول "بيتهوفن" ومرورا ب "شوبرت" و"دفورجاك" و"مالر" و"فوغان" انتهاءً ب"ويليامز"..

(7)

حرَّك يوسف فتيس السيارة بقوة ثم ضغط على دواسات البنزين بغل.. لتزعق السيارة وتصدر عجلاتها صريرًا مدويًا كنائحة ثم انطلق بأقصى سرعة كأنه يسابق الزمن.. كانت مؤشرات السيارة تشير إلى أنه يقود بسرعة مئة كيلومتر في الساعة.. كأنه تقمص دور فان ديزل في فيلم Fast &furious

كان يوسف يرتجف من الرعب.. فلو صدقت فكرته فلن تكون الجريمة التالية مجرد جريمة قتل عادية.. بل ستكون فضيحة عالمية..

بعد أقل من ربع ساعة وصل يوسف أمام القبة الدائرية المضيئة لدار الأوبرا، والتي كانت متألقة كقطعة من المرمر.. تجاوز يوسف البوابة الرئيسية مسرعًا حتى طارده رجال الأمن وكونوا حائلًا بشريًا أمامه.. فاضطر أن يخرج لهم بطاقة هويته ليذعنوا له ويفسحوا الطريق وهم يعتذرون.. لكنه لم يبالِ باعتذارهم، فسأل أحدهم بلهجة متوترة

إذا كانت حفلة المايسترو "إبراهام لويس" ما زالت مستمرة أم انتهت..

ليخبره في خشوع قائلًا:

– نعم لقد انتهت منذ ساعة تقريبًا..

فقال يوسف لاهثًا..

– وهل غادر مستر لويس أيضًا؟!

فأومأ الحارس برأسه قائلًا:

– لقد غادر في سيارته المرسيدس السوداء مع مدير الأوبرا منذ نصف ساعة تقريبًا وكانا في طريقهما للفندق..

فسأله يوسف وقد اتسعت عيناه..

– أي فندق.. هل تعرف؟!

فأجابه زميله الآخر بجواره الضخم كثور، وهو يشير بيديه..

– فندق فيرمونت أمام كورنيش النيل.. تقريبًا ربع ساعة من هنا

وقتها لم يشعر يوسف بنفسه إلا وهو منطلق كالسهم إلى الفندق.. لكنه للأسف لم يجده هناك كما أخبره مدير مكتب الاستقبال.. رغم أنه مرت أكثر من ساعة على انتهاء الحفلة، والذي ضاعف من قلقهم هو هاتفه المغلق..فضغط يوسف على أرقام هاتف اللواء ضرغام رئيسه ليخبره بالخبر المشئوم.

(8)

مضى زارا نحو فريسته بتؤدة منتعشًا وهو يشعر بنشوة عارمة تسري في عروقه.. كان يبدو من بعيد كشبح أسود لكن كلما اقترب اتضحت ملامحه رويدًا رويدًا حتى ظهر بصورته المخيفة كاملًا.. كان يرتدي هذه المرة عباءة سوداء أسفلها قميص وسروال أحمر ضيق، وعلى وجهه قناع يغطي نصف وجهه له حاجبان كتان، وأنف طويل مدبب،وشارب مبروم لأعلى..هذا القناع الذي كان يرتديه "بانتالون" التاجر الجشع في فينسيا..

مرَّر زارا يده على جلد "لويس" العاري وهو يتحسسه كأنما يكتشف خريطته..فارتجف كالجرذان، وأخذ يتوسل إليه بالإنجليزية وهو يبكي حتى انسكبت دموعه على الأرض ترويها بخوفه..

- Please.. pleaaaaaase.. leave me pleaseeeeeee

فجثا زارا علي ركبتيه وهو يربت على شعره الرمادي المبعثر برقة..

– صدقني أنا لم يكن في نيتي أن أفعل أي شيء سيء لك.. لقد أجلتُ كل أعمالي وحرصت بشدة لأحضر حفلتك وهذا شرف لو تعلم عظيم..!كل ما حدث لم يكن مخططًا له.. يمكن أن تطلق عليها ارتجالة.. ارتجالة بديعة.. عامة سأخبرك قصة بسيطة..

ثم نهض زارا من الأرض، ونصب قامته الطويلة فبدا شامخًا مخيفًا كعمود طوطم، وأخذ يروي بلهجة قصصية..

– أظنك بالتأكيد تعرف هذه الحكاية..أسطورة أبوللو ومارسياس.. أبوللو الإله العظيم.. إله الفن والموسيقا.. الذي تحداه بشري يُدعى مارسياس.. أبوللو الذي يعزف على قيثارة في مواجهة مارسياس الذي يعزف على ناي منحته إياه الإلهة أثينا.. كانت النتيجة محسومة مقدمًا..كان مارسياس مسكينًا حتى يظن أن هذا الإله المتعجرف يمكن أن يسمح بفوز البشري.. كان مسكينًا حقًّا..لم تكن المسابقة عادلة، وبالرغم من أن الملك "ميداس" أفتى ببراعة عزف "مارسياس"، وأفضليته لكن هذا الحكم لم يرق لأبوللو فغضب عليه ومسخ أذنه لأذن حمار.. ثم أصدر أبوللو حكمه الخاص بعقوبته.. هل تعرف بماذا حكم هاهاهاها؟!

وقتها شعر "لويس"بطائر الخوف ينهش في قلبه.. لأنه كان يعلم بالضبط ماذا حدث.. لقد كان يعلم هذه القصة جيدًا، ويعلم أيضًا كيف تم تخليدها.

أول مرة عرف هذه القصة عندما زار المتحف الوطني في مدينة "كرومريز" في التشيك ورأي هذه اللوحة.. آخر أعمال الفنان الإيطالي "تيتيان" عام 1576، والتي قيل أيضًا أنها رسمت في أعقاب موت القائد الفينيسي "ماركو أنطونيو براجدين "الذي أعدمه العثمانيون..

أخرج زارا لوحة من الورقة المقوّى كانت مُخبَّأة داخل عباءته.. والتي ظهر فيها "مارسياس" مقيدًا إلى شجرة مقلوبًا رأسًا على عقب بينما الجلادون يقومون بسلخه وأبوللو منتشٍ غير عابئ بدموية المشهد ويعزف على الكمان.. ثم قال زارا بلهجة مسرحية..

–هاهاهاها..بالتأكيد خمنت عقوبته،والآن أنت تعرف مصيرك.. هاهاهاها..

ثم استلَّ من جعبته سكينًا حادًّا يقلبه على يده كالجزارين.. بينما عينا "لويس" متسلطة نحوه تكاد أن تقفزا من موضعها..

– عليّ أن أعترف أنني عندما رأيتك وافتتنت بك شعرت بالخطر.. في البداية عندما سمعت موسيقاك شعرت بالإنسان الأعلى يتضخم وينمو لديَّ.. لكن بعد ذلك شعرت باضطراب شديد وخلل

ما.. لا يمكن أن يخضع الإنسان الأعلى لأي شيء مهما يكن.. هو أقوى من كل شيء لأنه فوق الجميع.. كما أنني شعرتُ بحقدٍ نحوك والجماهير الغفيرة تصفق لك..لماذا تمتلك أنت فقط هذه الأنامل الذهبية.. لما أنت وحدك مختصٌّ بها؟!

يمكنك القول إن أبوللو استيقظ داخلي وتجسَّد في صورتي وقرر الانتقام، غير أنه بيني وبينك مجرد تخيل اللوحة على الواقع أغراني بشدة وأشعرني بقوة هائلة.. لذا قررتُ أن أقدمك كقربان لأني فعلًا أحبك، وهذا القربان ربما هو أضحية في سبيل وصولي للضفة الأخرى.. هناك.. حيث ينتظر.. الإنسان الفائق..

ثم أردف بنغمة مصطنعة متظاهرًا بالأسى:

– سامحني يا مايسترو.

بعدها بدأ في تمزيق جسد العازف الشهير، والدماء تسيل منه بغزارة مصاحبة بصرخاته المدوية وصوت لحمه وهو يتمزق، بينما "زارا" لا يبالي، يقرأ في خشوع كالكهنة كأنه يؤدي طقوسًا دينية..

– إنني أحبُّ من لا غاية لهم في الحياة إلا الزوال.. أحبُّ من يجود بروحه فلا يطلب جزاءً ولا شكورًا..أحبُّ مَن تفيض نفسه حتى يسهو عن ذاته.. أحبُّ من يعيش ليتعلم، ومَن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل الفائق بعده.. أحبُّ من يقدمون ذواتهم قربانًا للأرض لتصبح ميراثًا للإنسان الفائق.. أحبُّ من يشبهون القطرات الثقيلة التي تتساقط متتالية من الغيوم السوداء فتنبئ الناس بالبرق وتتوارى.

ثم رشقه في منتصف بطنه بقوة حتى صرخ "لويس" صرخة شقت عنان السماء بينما "زارا" يصيح كالمجنون:

ما أنا إلا منبيء بالصاااااعقة..

أنا القطرة السااااااااقطة ..

أنا النار الحارقة..

أنا اللحظة الفارقة..

أنا القوة الخارقة..

.وما الصاعقة التي أبشر بها إلا الإنسان الفائق..

أنااا..

زارااااااااااااااااااااااااا

***

6

تفاح الموت

(1)

في يونية 1973 كانت توجد فتاة تُدعى "سوزان جيجار" تبلغ من العمر 7 سنوات فقدها أبواها في أثناء إقامتهم في خيمة في إحدى الغابات في أثناء الإجازة الصيفية.. يبدو أنها تحركت في الليل في أثناء نومهما..

نزل الخبر كالصاعقة عليهما.. فاكتئب الأب بينما تدهورت حالة الأم الصحية حتى ابيضت عيناها من الحزن على ابنتها، ولمدة عام ظلت شرطة "مونتانا "تبحث عن الفتاة لكن بلا أي نتيجة حقيقية.. في يناير 1974 عثرت الشرطة على جثة مشوهة لفتاة بيضاء تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا في بقعة قريبة من المكان الذي فُقدت فيه سوزان، وقتها فشلت جهود الشرطة في الوصول لأي دليل مادي يقودهم لحل لغز الجريمتين.. فاستدعت الشرطة أحد الأطباء النفسيين

الذي صمَّم لهم صورة مبدئية للقاتل المتوقع بناء على الصور المعروضة.. في تقريره تم وصف القاتل بالصفات التالية..

1- القاتل على الأرجح شاب أبيض.

2- يسكن بمفرده.

3- يعيش بالقرب من المعسكر.

4- غالبًا تم إدانته بجرائم في الماضي.

5- مهووس بالاحتفاظ بتذكار من جثة كل ضحية.

كانت هذه الصفات منطبقة على مُشتبه به اسمه "ديفيد ميرهوفر".. فاعتقلته الشرطة، لكنها أفرجت عنه فيما بعد لعدم وجود أي دلائل أو قرائن مادية تثبت تورطه.. كجزء من التحقيق قام الإف بي آي بوضع مسجل في هاتف عائلة "سوزان جيجار" على أمل أن يقوم المجرم بمعاودة الاتصال بهم لابتزازهم أو السخرية منهم.. وبالفعل عاود المجرم الاتصال من هاتف عمومي.. تكلّم مدة 30 ثانية، والتي كانت كافية لتسجيل صوته والتعرف إليه، وكان هو بالفعل "ميرهوفر"..

داهمت الشرطة شقته مرة أخرى، وبفحص أكثر دقة نجحوا في العثور على تذكارات كان يحتفظ بها من جثث الضحايا، ورغم أن المجرم شَنَقَ نفسه في محبسه قبل صدور حكم نهائي عليه.. لكن أهمية هذه الجريمة تكمن في أنها الجريمة الأولى التي يستخدم فيها الإف بي آي التنميط الجنائي..

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا عندما انتهت ياسمين من تصفح الملف الذي أعطاها يوسف إياه.. قرأته بنهمٍ كعادتها وفي وقت قياسي، لهذا استحقت أن يلقبها أصدقاؤها ب"دودة كتب".. وبالرغم من أن الوصف مقزز لكنه كان صادقًا تمامًا..

شعرت ياسمين بصداع من طول فترة القراءة فاسترخت على فراشها وهي تشرب قدحًا من اللبن كمكافأة لها.. ثم ولجت إلى صفحتها على الفيس بوك كعادتها حتى تكون على معرفة بأحداث العالم الخارجي الجديدة..

عندما دخلت ياسمين إلى الموقع الأزرق لاحظت أن صفحتها العامة مزدحمة بمنشورات لا تتكلم إلا عن حدث واحد ومرفقة بمقطع فيديو.. ضغطت على زرٍّ تشغيل الفيديو لترى أمامها "زارا" السفاح مرتديًا قناعًا مخيفًا جديدًا يقوم فيه بسلخ الموسيقار الشهير المسكين الذي جاء إلى مصر في استقبال حافل ليلقى مصيره مسلوخًا كالخراف على يد قاتل متسلسل مخبول..كان الفيديو بشعًا للغاية، والغريب أن القاتل يبدو مستمتعًا بجريمته لأقصى حدٍّ، فنفذها على أنغام موسيقا سيمفونية وهو يجأر بتراتيل اقتبسها من كتاب نيتشه الملعون..

شعرت ياسمين بالحمض يصعد إلى معدتها.. شعور هائل بالغثيان وكأن نيران نشبت في صدرها.. فأسرعت إلى الحمام لتفرغ ما في معدتها..ثم غسلت وجهها بعدها.. لم تتحمل المشهد.. لولا أن كل ما

يحدث حقيقي لم تتخيل وجود إنسان على هذا القدر من البشاعة.. فاسترخت مرة أخرى على الفراش ينتابها خوف مجهول من أن يهاجمها هذا المجرم لتظهر جثتها في إحدى فيديوهاته..

على العموم يجب أن تستدعي النوم مرة أخرى.. فغدًا أمامها يوم طويل، وبالتأكيد المقدم يوسف لن يكون متفرغًا لها لكنها تحتاج أن تقابله بشدة حتى تطلعه على ملاحظاتها.. مَن يدري ربما ساعدتهم في حصار هذا المخبول؟!.. فأرسلتْ له رسالة قصيرة عبر هاتفه:

"أريد مقابلتك غدًا لأمر عااااااااااجل"..

ثم استسلمت لنوم عميق.

***

(2)

كان الفندق مكتظًّا برجال الأمن كأنما تحول لثكنة عسكرية، رجال الأمن بخوذاتهم وبزاتهم السوداء والبنادق الآلية في كل حدب وصوب، وآخرون بملابس مدنية يمسكون بهواتف لا سلكية ويثرثرون في عصبية كالديكة..

كان اللواء "عادل رستم" مدير الأمن ذاته موجودًا بوجهه الصارم وشاربه الأبيض وعينه التي تشبه الصقر يتحدث بصوت أجش لأحد مساعديه وهو يشير بيديه في غضب.. فيما "ضرغام" يمضي بجانبه منكس الرأس متجهمًا كجرذ مذعور..

الأمر كان أشبه بكارثة حقيقية لوزارة الداخلية..فالجريمة هذه المرة صداها واسع للغاية، جريمة عالمية بامتياز وضربة موجعة للسياحة.. ستجعلهم في الخارج يقولون إن القاهرة لا تستطيع حماية أرواح ضيوفها المهمين والسياح الزائرين..

فور أن بث المخبول زارا فيديو له وهو يسلخ الموسيقار الشهير تلقفته وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي وانتشر عبرها كالنار في الهشيم.. كان رد الفعل سريعًا للغاية رغم بث الفيديو في ساعات الليل المتأخرة..

فاستيقظ مدير الأمن على اتصال من وزير الداخلية ذاته ليجده يصيح فيه كنمر غاضب..

– أنت نائم يا ابن الكلب، والدنيا مقلوبة رأسًا على عقب.. لو كنت تعرف كيف تؤدي وظيفتك كما يجب لما كان هناك سفاح طليق في شوارع القاهرة يقتل كما يشاء ويتسبب لنا في فضيحة بقتله شخصية عالمية ثم ينشر الفيديو عبر السوشيال ميديا.. اعتبر نفسك موقوف عن العمل يا سيادة اللواء لو لم تعثر على المجرم خلال 72 ساعة.. تفوووو..

ثم أنهى المكالمة غاضبًا..

غمر العرق الغزير جسد اللواء المفزوع.. مسح وجهه كأنه تلقى بصقة حقيقية..فمستقبله الوظيفي الآن أصبح على المحك ومتوقف على سرعته في الوصول لمفاتيح هذه القضية..

بدوره التقط مدير الأمن هاتفه واتصل باللواء ضرغام مدير مباحث العاصمة ثم لقنه درسًا قاسيًا ..

– يا ابن الكلب.. الوزير شخصيًّا سبني لأول مرة في تاريخي يا أفشل مدير مباحث في تاريخ الداخلية..أقسم بالله لو لم تحرك مؤخرتك المترهلة العاهرة وأمسكت بالمجرم في خلال ال 72 ساعة القادمة لأنهي خدمتك وألقيك في بيتك كالولايا.. قابلني يا فاشل عند فندق فيرمونت.. تفوووووو..

كان رأس ضرغام يغلي كأنها مرجل.. فغمر وجهه عرق غزير بارد وهو يشعر بألم شديد يعتصر قلبه، فتناول حبة الداينترا ثم اتصل هو الآخر بيوسف لاهثًا وألقى على مسامعه كلمات قاسية ..

– يا ابن الكلاب يا أفشل ضابط تخرج من الأكاديمية.. سأحضر لك قميص نوم أحمر، وسأحرص على أن ترتديه في المديرية أمام كل العاملين لو لم تُلقِ القبض على السفاح في خلال ال 48 ساعة القادمة..هذا بعد إيقافك عن العمل إن لم أسجنك قبلها.. تفووووووووووو..

ثم أنهى المكالمة بغتة..

كان الوضع مأزومًا للغاية.. من فترة لم تشهد القاهرة مثل هذا التوتر الأمني.. الكمائن في أكثر من شارع تعترض السيارات والمارين.. الكلاب البوليسية في كل مكان تبحث عن أي أثر لرائحة المايسترو.. في ذات اللحظات التي كان فيها يوسف يقوم بالبحث في غرفة "إبراهام لويس"عن أي دليل يمكن أن يقود للقاتل..لكن للأسف

لم يعثر علي شيء ذي أهمية سوى جواز السفر وبعض المقتنيات الشخصية ..

فيما بعد في الساعات الأولى من الصباح نجحت دورية في العثور على سيارة مرسيدس سوداء مهجورة وجدوا داخلها السائق ومدير الأوبرا مقتولين برصاصتين من مسدس كاتم للصوت في أحد شوارع حي الزمالك.. كانت الرصاصة في منتصف الرأس تمامًا، وعيون الجثتين جاحظة كأن صاحبيها يشاهدان مشهدًا مرعبًا.. تم تمشيط السيارة أملًا في العثور على أي عينات غريبة يمكن الاستعانة بها للوصول إلى "DNA" الخاص بالقاتل لكن دون جدوى،كأن المجرم هو الرجل الخفي بالفعل.. يأتي من العدم ويتبخر في الهواء..بعد أن فحص يوسف السيارة بنفسه.. مشى في الهواء الطلق منكس الرأس مُحبطًا.. ثم استلَّ هاتفه يتصفحه مغمومًا حتى وجد رسالة من الطبيبة ياسمين تطلبه للقاء عاجل.. فأجابها على الفور وحدد معها موعدًا للمقابلة والأمل يحدوه..

ليتها وجدت شيئًا مهمًّا .. فقد باتت هي الآن الأمل الوحيد.

***

(3)

في صباح اليوم التالي قابَلَ يوسف ياسمين في أحد المطاعم النيلية.. كانا جالسين إلى أقرب منضدة خشبية تطل على النيل.. حابي العظيم الذي قدسه المصريون ويحوي في جوفه المئات من جثث العذراوات ..

كانت الساعة حينها تقترب من الحادية عشرة صباحًا.. أي مرت عشر ساعات على يوسف من مهلة الثمانِي والأربعين ساعة لإيجاد القاتل، وأكثر من 24 ساعة وهو لا يزال مستيقظًا حتى تورمت جفونه واحتقنت عيناه فصارت بحيرات دموية مثل مصاصي الدماء.. في هذه اللحظة رأي يوسف ابنته ترتدي فستانها الأبيض وتشير له ثم ألقت جسدها في النيل.. فحرك رأسه وركز في عين ياسمين.. كانت لحيته استطالت فغدا شبيهًا بالمعتقلين بينما هي كانت ترتدي قميصًا أبيض وجونلة بنية فضفاضة..

فتحت ياسمين الملف الذي تحمله وهي تحكُّ أسفل عينيها ثم بدأت الحديث بصوتها الناعم:

– معذرة لأنني أرسلت إليك هذه الرسالة في وقت متأخر.. لكني أعرف أن الوقت حيوي جدًّا بالنسبة إليك بالذات بعد الجريمة الجديدة..

فاعتذر هو بدورها وعلى وجهه تظهر ابتسامة مرهقة..

– لا.. أنا الذي أعتذر لكِ لأنني ورطتُك في هذا الأمر..لكني في مأزق حقيقي وأحتاج إلى عقل خارج هذه الدائرة يطرح عليَّ بعض الأفكار والاستنتاجات عسى أن تقودني إلى حلّ..

– لا عليك.. أنا مثل السمك نومي قليل للغاية.. أنام وعيني مفتوحة.. المهم فلنبدأ..

– لا انتظر.. بالتأكيد لم تفطرِ..

ثم في لحظتها رفع يده ولوَّح للنادل وهو يسألها:

– هل تفضلين مشروبًا معينًا؟!

فابتسمت برقة:

– أحرجتني بذوقك.. أوك.. قدح نسكافيه..

فطلب من النادل قدح شاي، ونسكافيه..

ثم قال بعد أن أحضرهما..

– الآن أخبريني ما الذي استخلصته؟!

أخذت نفسًا عميقًا وقامت بتعديل وضع نظارتها ثم قالت بصوت عميق:

– حسنًا أنا بالتأكيد بحاجة إلى قراءة الملف مرة أخرى بصورة أعمق.. لكن عمومًا هناك بضع انطباعات أظنُّ من المهم أن تَطلع عليها..

أرجع يوسف ظهره للخلف ثم لوَّح لها بأنه يمكنها بدء الحديث..

رشفت ياسمين رشفة أخرى من قدح القهوة واستطردت بجدية..

– أولًا.. سأتكلم عن تصوري للمواصفات الجسدية للقاتل.. أظنُّ أنه رجل أبيض طويل القامة ضخم الجثة حيث إن الجرائم التي ارتكبها تحتاج إلى قوة جسدية، ففي أكثر من جريمة يطلق النيران على السيارة التي توجد بها الضحية من بعيد ثم يقوم بتخديره أو تهديده وينقله إلى سيارته الخاصة.. أما بالنسبة لعمره فيتراوح بين أواخر العشرينيات ومنتصف الثلاثينيات،كما أنه ربما يعاني تشوُّهًا ما في وجهه أو حرقًا؛ لذا فهو يحرص على إخفاء ملامحه دائمًا والتخفي في الأقنعة الفينيسية التي يستخدمها..

ثانيًا.. هو من سكان القاهرة لأن كل جرائمه إلى الآن انحصرت داخلها.. أستطيع أن أجزم أنه يقيم في إحدى المدن الجديدة.. وفي

فيلا بالتحديد لأن أغلبية المقاطع تظهره داخل غرفة واسعة أو مرآب أو شيء من هذا القبيل.. والذي أكد لي ذاك المقطع الأخير حينما قام بقتل الموسيقار وظهر في حديقة واسعة.. أتصور أنه يقيم في مدينة بالقرب من الإسكندرية.. السادس من أكتوبر على الأرجح..

رغم إرهاق يوسف ورغبته الشديدة في النوم فقد انتبهت حواسه وأرهفَ السمع كقطٍّ لملحوظاتها.. يجب أن يقرَّ بأن عقلها منظم كالحاسوب وهو شخصيًا مُستمتع بكلماتها.. فأردفت وهي تعدل من وضع نظارتها مرة أخرى كأنها تُلقي محاضرة:

– ثالثًا.. هو يعيش بمفرده..يعاني العزلة، بتعبير آخر غير مرئي اجتماعيًا..لذا فهو يتخفي وراء الأقنعة والتي هي بالمناسبة كما ذكرتُ كلها أقنعة شعبية فينسية.. فهو حريص على التناوب بينها كأنما يؤدي عرض أزياء، وعمومًا هو ليس الأول الذي يتنكر.. فالسفاح "جون واين جاسي "يقال إنه نفذ جميع جرائمه وهو يرتدي زيَّ مُهرج.. في ذات الوقت هو مريض بالشهرة والاستعراض.. أعماله الإجرامية هي إنجازاته..لهذا فهو يستمتع بتسجيلها وإذاعتها على مواقع التواصل الاجتماعي.. ورغم ذلك فهو شخص مُثقَّف للغاية.. لوهلة تخيلته من اليساريين المجانين الذي يجلسون في مقاهي وسط البلد ثم أصابته لوثة عقليه فأصبح ما كان عليه.. لكنه مثقف سيكوباتي.. يمقُتُ كل ما حوله، ولهذا فقد وجدت فيه فلسفة نيتشة أرضًا خصبة تترعرع فيها أفكاره مثلما حدث مع هتلر وألمانيا النازية من قبل..

فمريم عزت تجسيد لاحتقاره للمرأة.. إدريس يُمثّل احتقاره للزنوج والضعفاء الذين يرضون بالظلم.. القاضي يجسد كراهيته للفضلاء وأصحاب النفوذ والسلطة..الداعية يُمثّل كراهيته للسلطة الدينية.. أما قتله الموسيقار فربما لأنه يحقد على المشاهير، وهو أيضًا كأي سفاح متسلسل يعتدُّ بجرائمه ويثق في نفسه إلى أبعد الحدود مثل الزودياك الذي كان لا يستنكف أن يرسل رسائل للشرطة.. لهذا فهو يراسلك في تحدٍّ واضح.. لكنه يستمتع بالتلاعب بك فيمنحك رسائل مبتورة.. فقط تمنحك خطوطًا عريضة لكنها لا تقودك أبدًا إلى تحديد هوية الضحية الحقيقية..

رابعًا.. بالنسبة لطبيعة عمله فإنني أرجح أن يكون فنانًا مغمورًا محبطًا لأن أعماله لا تحقق الصيت المأمول.. أو فيلسوفًا متحذلقًا لا أحد يولي كتاباته أي اهتمام.. هناك احتمال آخر أن يكون شخصية أكاديمية محاضرًا في كلية الفنون الجميلة أو الآداب بالتحديد لولعه بفن الرسم والفلسفة.. لكن عامةً أميل شخصيًّا إلى أنه لا يجيد الرسم رغم ولعه به.. لذا فهو يحاول تعويض هذا النقص بتنفيذ اللوحات الفنية البشعة على أرض الواقع..

خامسًا.. بالنسبة لجرائمه..فكما قلت هو يقلد لوحات فنية شهيرة باتقان.. لكن بصراحة هناك بعض التفاصيل التي تحيرني.. بالذات في الجريمة الأول والتي قتل فيها الفنانة "مريم عزت" وتماهى فيها مع لوحة Anatomical pieces

ففي اللوحة الحقيقية تظهر أطراف مكدسة بعضها فوق بعض.. وهو كذلك فعل مع أشلاء مريم.. لكن الذي أتساءل عنه ومغاير للوحة الأصلية هو: لماذا قام بتشويه وجهها؟ لماذا شَقَّ وجهها من الأذن للأذن مُحدثًا هذه الابتسامة الشهيرة المسماة بابتسامة جلاسكو؟!

أيضًا هناك ملاحظة أخرى لم تهتم بها الشرطة عندما رأيت الصور التي التقطت في مسرح الجريمة..

فسألها يوسف وهو يعقد حاجبيه..

– أي ملاحظة يا ترى؟!

فالتقطت ياسمين إحدى الصور الفوتوغرافية ثم أشارت إلى لوحة طفل في ركن الغرفة.. لوحة الطفل الذي يبكي ..

فنظر يوسف إليها شاعرًا كأنه لأول مرة يراها متعجبًا كيف غفل عن الانتباه لهذه الملاحظة..

ثم استأنفت الطبيبة ياسمين الكلام بثقة..

– يمكنك الاتصال بالفندق لتتأكد مما أقوله.. لكني واثقة أنه يستحيل أن تكون هذه اللوحة هي اللوحة الأصلية التي كانت موجودة في الغرفة ..

فسألها يوسف متعجبًا..

– لماذا؟! ما قصة هذه اللوحة؟!

فأردفت ياسمين..

– هذه اللوحة وراءها قصة كبيرة.. يمكن أن تدعوها بأيقونة النحس.. عامة باختصار هذه اللوحة هي إحدى النسخ التي رسمها الفنان الإيطالي "جيوفاني براغولين" الذي كان مهووسًا برسم لوحات عديدة لأطفال ذكور وإناث يبكون.. فيُحكى عنه أنه كان يجوب شوارع مدريد ذات يوم في عام 1969، وفي أثناء سيره سمع صوت بكاء متقطع، فذهب إلى مصدر الصوت وإذ به يرى ولدًا يرتدي ملابس قديمة جالسًا خارج إحدى الحانات، وهو يبكي..

فسأل "جيوفاني" الولد إذا كانت هناك أي مشكلة معه، لكن الولد لم ينبس ببنت شفة والتزم الصمت وذرف الدموع.. فأشفق عليه "جيوفاني" واصطحبه معه وأطعمه، ورسم له بورتريه.. بعد ذلك تعددت زيارات الولد له فرسم له العديد من اللوحات، الغريب في الأمر أنه في جميع زيارات الطفل له كان يبكي فقط ولا يتكلم، وهذا ما يفسر النسخ التي رسمها "جيوفاني" للطفل باكيًا. بعد فترة قصيرة زار "جيوفاني" كاهنًا يبدو عليه الارتباك حذره من هذا الطفل.. فادعى بأن اسمه "بونيللو" وأنه فَقَدَ عائلته كلها في حريق شبَّ بمنزله ليلازم الشوارع بعدها وهو يبكي طوال الوقت.. ثم نصح الكاهن "جيوفاني" بألا يساعد الطفل أكثر من ذلك لأنه ملعون.. فأينما

يذهب تشب النار في إثره.. بعد سماع جيوفاني نصيحة الكاهن شعر بالاشمئزاز.. فكيف لرجل دين أن ينصحه بأن يكف عن مساعدة طفل يتيم وضعيف، ولذلك لم يأخذ بنصيحة الكاهن وتبنى الطفل وظل يرسم له.. يرسم ويرسم،ويرسم حتى امتلأت أوروبا بلوحاته وحقق ثروة لابأس بها من ورائها.

لكن يبدو أن الكاهن كان مُحقًا ولعنة الطفل حقيقية.. فلم توجد هذه اللوحات في مكان إلا واحترق، وتبقّت اللوحة سليمة تمامًا لم يمسسها أذًى.. لذا لا أظنُّ أن اختيار اللوحة عشوائي.. فربما يكون وضعها للتأكيد لعنة هذه اللوحة.. أو ربما لسبب آخر نجهله.. مثل أنه تعرض لمأساة معينة في طفولته ..

فقال يوسف معجبًا بثقافتها:

– ملاحظة ذكية جدًا وجديرة بالاعتبار.. أنا فعلًا لم أنتبه إليها.. هل هناك شيء آخر اكتشفته يا دكتور؟!

هزت ياسمين رأسها ثم أردفت:

– نعم.. اختياره للضحايا.. في البداية كنت أظنه عشوائيًا.. لكني اكتشفتُ فيما بعد أنني مخطئة..

حملق يوسف في وجه ياسمين بجدية وسألها مستفسرًا:

– ماذا تقصدين أن اختياره للضحايا غير عشوائي؟!

رشفت الطبيبة ياسمين الماء رشفة من الماء لترتوي.. ثم قالت بلهجة عميقة كلمات في منتهى الخطورة جعلت يوسف يشهق الأنفاس وينبهر من ذكائها ..

فقد كانت محقة للغاية.

***

(4)

كانت كلمات الطبيبة ياسمين لاتزال تدوي داخل رأس يوسف وهو يقود سيارته..

– اختيار السفاح للضحايا لوهلة يبدو عشوائيًا.. لكنك عندما تدقق في اختياراته ستكتشف أن الأمر عكس ذلك تمامًا.. إدريس، داود، يحيى، إبراهام..اختيارهم لم يكن محض مصادفة، ولم يتوقف فقط على مناصبهم أو أعمالهم.. فكتاب "هكذا تكلم زرادتشت" لنتيشه بالأساس يمثل ذروة الثقافة الإلحادية والفلسفة العدمية،والذي كفر فيه نيتشه بالدين المسيحي وكل الأديان السماوية وجهر بمقولته "موت الإله".. جل الله وحده الحي الذي لا يموت..

تباعًا.. كما قلتُ أسماء الضحايا لم تكن قط أسماء عادية..لو دققت في الأمر ستلاحظ أن أسماءهم كلهم أسماء أنبياء.. حتى مريم ضحيته الأولى فهي على اسم القديسة مريم العذراء..

كانت ملاحظة ياسمين في منتهى الذكاء..كم هو غبي أبله.. كيف لم ينتبه إلى هذا من قبل؟! بالفعل.. هكذا تضح الكثير من الأمور..

في هذه اللحظة.. سمع يوسف صوت زوجته تأمره بأن يخفف من سرعته فأجفل..كان في طريق مصر إسكندرية الصحراوي.. فنظر عن يمينه فرأى زوجته ذات الشعر الكستنائي، والعينين العسليتين.. والأنف الروماني الدقيق، وفي المقعد الخلفي رأى ابنته تلهو بدمية باربي وهي تقهقه سعيدة فدمعت عيناه.. ثم بغتة انشقت الأرض وبرز من أخدود عميق شاحنة نقل بشعة كانت مقدمتها على شكل فم متوحش ذي أنياب ثم أصدرت نفيرًا مدويًا بدا كنعيق الغراب..

كانت السيارة تقترب بشدة منه حتى احتك جانبها به وكادت تصدمه.. فأخرج يوسف رأسه من الشباك وهو يسب ويلوح في السائق.. لكن السائق كان ينظر للأمام كأنه أصم لا يعبأ به.. يقود السيارة كالمُنوَّم مغناطيسيًا بملامح جامدة مخيفة.. ثم فجأة أدار رأسه له فارتعد.. كان السائق يرتدي قناع "باوتا" المريع.. ثم رفع القناع فرأى وجهه.. وجه شنيع كأنه الشيطان نفسه، وعلى ثغره ارتسمت أبشع ابتسامة رآها في حياته.. كان السائق هو زارا.. نفسه.. شعر يوسف بشلل في عقله.. هناك شيء غير منطقي.. فضغط على دواسة البنزين بأقصى سرعة وهو يأمر زوجته وابنته اللتين كانتا ترتجفان من الخوف أن يربطا حزامي الأمان.. ثم حاول الإفلات من زارا.. لكن سيارته

كانت قوية فمال عليه وحاصره بينه وبين الحاجز الحديدي وأخذ يصدمه.. صدمة تلو الأخرى.. صدمات شعر كأنها هزات أرضية.. حتى فَقَدَ السيطرة على القيادة وطارت السيارة في الهواء، وعندما سقطت على الأرض اندلعت النار فيها وتناثرت الدماء في كل مكان..

حينها أفاق يوسف .

***

(5)

سَحَبَ نفسًا عميقًا وفرد ذراعيه وهو يشعر بالقوة والنشوة تتخللانه..كانت العروق نافرة في جسده كالخراطيم.. عضلاته مفتولة كإله حرب إغريقي.. ثم نظر إلى صورته في المرآة معجبًا بها.. لقد صار قويًّا جدًّا.. بل هو أقوى مخلوق على ظهر الأرض.. كم هو عظيم! لم تنجب البشرية شخصًا خارقًا مثله منذ أمد بعيد..لقد خطط لكل شيء منذ فترة بعيدة..كل شيء له خطط له بدقة.. حتى أنه جَمَعَ خُططه في كتاب ولفَّه بجلد طبيعي كالمخطوطات القديمة وسماه "لوحات شيطانية".. ربما يأتي له وقت يتسنى فيه نشر الكتاب ليدرك العالم مدى عبقريته..

---

* يقال إن هذه الشجرة من أكثر الأشجار سُمية في العالم.. حيث كان يضع سمها سكان الكاريبي في الماضي على سهامهم لقتل أعدائهم من أول وهلة.. كما أنها قد تسبب الحرق عند لمسها.. لذلك يُعلق عليها دائمًا لوحات تحذيرية.. يقال أيضًا إن الدخان الناتج عن حرقها يسبب العمى.. كما أنها ذات أوراق صنوبرية ضخمة حادة الأطراف وثمار خضراء تشبه التفاح يُدعى "تفاح الموت"..

خرج "زارا" من غرفته ثم أخذ يتجول في حديقته وشعور هائل بالفخر يسري داخله.. كانت حديقته أيضًا متطابقة مع شخصيته.. مثال للجمال والقوة في آن واحد.. بها من العجائب والغرائب ما لايخطر على بال بشر.. كان في هذه اللحظة بجوار شجرة المنشنيل العملاقة*.. التي نجح في جلبها وزراعتها بمشقة..

والآن يراها تنبت أمامه شاعرًا بفرحة طاغية كفرحة أم عندما ترى أمام عينها جنينها يخرج للنور..

فالتقط ثمرة منها تُشبه التفاح ثم ألقاها أمام كلبه.. فهُرع إليها المسكين لأنه جائع وعندما قضم منها قضمتين هوى جثة هامدة على الفور.. نظر "زارا" إليه وعلى وجهه ترتسم ابتسامة مخيفة.. لقد اقتربت لحظة الصفر..لحظة الميلاد المجيدة.. لكن قبل ذلك هناك مهمة يجب أن ينفذها.. في أسرع وقت.

***

(6)

عندما أفاق يوسف وجد نفسه يرقد على فراش في غرفة بيضاء وأزواج من العيون تحدق إليه.. إحداها كانت عيني ياسمين العسليتين بينما العيون الأخرى كانت لطبيبٍ وممرضته..

تهللت أسارير الطبيب على الفور عندما استعاد يوسف وعيه.. فربت على كتفه وقال وابتسامة هادئة غزت ملامحه..

– لقد أقلقتنا عليك يا حضرة الضابط..

بينما كان يوسف يحملق في وجهه في ذهول لا يفهم شيئًا.. فيما بعد أخبرته ياسمين أنه انتابته نوبة صرع في أثناء لقائها معها.. فسقط على الأرض تتنشج كل أعضائه كالممسوس.. ثم خرجت رغاوى بيضاء من جانب فمه وفقد الوعي.. فاتصلت بالإسعاف على الفور ونقلته إلى أقرب مشفى..

– آسف لأنني عطلتك يا دكتور.. أنتِ أول شخص يعرف سري هذا.. هذا السر الذي كافحت في أن أخفيه عن الجميع.. لأنه لو اشتمَّ أحد في الداخلية أنني مصاب بالصرع سينهون عملي على الفور وينقلونني على أحسن تقدير إلى الأعمال المكتبية..آسف مرة أخرى.. بالتأكيد سببت لكِ ذعرًا هائلًا..

هكذا قال يوسف في خجل، وهو ينظر ناحية ياسمين، وشعور هائل بتأنيب الضمير يعتريه، فابتسمت ياسمين في رقة وهي تقول..

– لا عليك.. بحكم عملي طبيبةً فقد اعتدتُ هذه الأمور.. المرض ليس وصمة عار حتى يحاول المرء إنكارها.. كلنا معرضون للابتلاءات.. لكن هل تعانيه منذ زمن؟ آسفة على التدخل لكن بحكم كونِي أعمل في هذه المهنة فقد اعتدتُ أن آخذ التاريخ المرضي لكل شخص أقابله..

نصب يوسف جذعه ثم قال وهو يمسك برأسه والعالم يتأرجح من حوله كأنه يستقل قاربًا والموج يُهدهده..

– لا..الموضوع بدأ تقريبًا منذ 6 أشهر..عندما أُصبت في رأسي..

ثم استأنف وهو ينظر ناحية النافذة والدموع محتشدة في عينه.. ثم جَزَّ على أسنانه كأنه يقاوم اعتصار الألم..

– كانت حادثة على طريق سريع.. انقلبت السيارة وأنا أقودها وزوجتي وابنتي معي..لقيت الاثنتان مصرعهما في الحال..بينما أصبت أنا برضوض وكسور في جسدي كله.. ثم خرجتُ منها وحيدًا بائسًا كنبتة صبار ليس لي أهل إلا الصرع ..

فمطت شفتيها وربتت على يده وهي تحني رأسها في أسف وتقول بصوت خفيض..

– أعتذر لك لأنني ذكرتك بأمر مؤسف كهذا..

فهزَّ يوسف رأسه وهو مبتسم..

– لا عليكِ..هذا هو القدر.. أنا الذي أعتذر لكي لأنني ورطتك مرتين.. مرة في القضية ومرة ثانية بسبب مرضي ..

حينها رن هاتف يوسف فالتقطه..ليجد شاشته مضيئة باسم النقيب "محمد الرفاعي".. فضغط على زر الإجابة على الفور.. كانت كلمات "محمد" مختصرة.. لكنها حملت أجمل خبر سمعه في حياته.. لقد أمسكنا بالمجرم..

بعد إنهاء المكالمة هبَّ يوسف كالمصعوق فنزع كل أسلاك المونيتور الموصلة إليه، حاولت ياسمين والطبيب منعه بدعوى أنه يحتاج الحجز مدة 24 ساعة تحت الملاحظة.. لكنه أصرَّ على المغادرة مهما تكن النتائج.. ثم انطلق كالسهم.

7

رؤوس الشياطين

(1)

وقف أمام المبنى العتيق متجمدًا لثوانٍ مرت عليه كالدهر تسفع رأسه الشمس الحارقة، وهو يحملق في اللوحة الزرقاء الضخمة التي تحمل اسم"مديرية أمن القاهرة".. فصعد درجات السلم بتمهل وصراع هائل يدور داخل عقله كأنه تحول إلى ساحة الكولسيوم ذاته.. لكنه حَسَمَ أمره.. لن يتراجع مهما يكن الثمن.. ضغط على الساعة وأوقفها حتى يخلد هذه اللحظة.. هذه اللحظة التي ستقلب حياته رأسًا على عقب.. تخيَّل مشهده وهو مُحاصَر بعدسات الكاميرات واسمه مُتداوَل على الألسنة والكل يتسابق ليحصد تصريحًا منه.. فتلاشى بعض القلق والخوف اللذان يعيثان داخله.. لأجل هذا فليعمل العاملون.. سيدخل التاريخ من أكبر أبوابه.. فغدًا يصنعون عنه الأفلام، ويتداولون أعماله، وتحكي عنه الأجيال عقودًا..

فابتسم من جانب فمه، وهو يتمتم..

– هذا هو المجد الحقيقي..

لكن عندما رأى عسكريًا مدججًا بالسلاح لوهلة أجفل.. تردّد.. شعر بغصة تعتلج في صدره.. ربما عليه أن يعدل عن قراره.. فوجد صوت داخله يهتف..

– هيا اهرب..اركض الآن بأقصى سرعة.. لم يكتشف أحد أمرك بعد..

لكنه سرعان ما طرد هذا الصوت وصوت آخر يشدُّ من أزره..

– هيا أيها الفارس.. انزع اللّثام وأعلن عن نفسك.. لقد حانت لحظة المجد..بوابات الشهرة والخلود مفتوحة على مصراعيها تنتظرك..

أخذَ نفسًا عميقًا.. شعر برئتيه تمددان، وقلبه يضخ دفعة جديدة من الدماء.. ثم نظر مرة أخرى تجاه البوابة الإلكترونية.. فرآها بوابة من الذهب.. هذه هي بوابة المجد الحقيقية.. ربما هي أهم بوابة في الوجود الآن.. حتى أهم من قوس النصر وبوابة الهند التاريخية.. فاتجه ناحيتها بثقة ثم وقف عندها.. لينظر إليه العسكري بريبة..

– ماذا تريد؟!

فابتسم ابتسامة جانبية، وهو يقول بلهجة واثقة..

– أنا لا أريد أحدًا.. أنتم من تريدونني..

ثم عبر البوابة وهي تعوي بقوة بينما العسكري يصيح فيه ثم وثب ناحيته.

(2)

18 يناير..

داخل الغرفة المظلمة.. جلس الرائد "محمد" بمواجهة المتهم في وجود مصباح شحيح يهبط من المنتصف يلقي عليهما الضوء فزاد من جو التوتر، بينما في جانب الغرفة وُجدت كاميرات إلكترونية ترصد كل ما يدور فيها وتنقل الصورة للخارج.. كان المتهم تفيض على وجهه ملامح البراءة.. لم يبدُ أنه بوسعه أن يؤذي قطة حتى.. لكن من قال إن المظاهر خدَّاعة كان محقًّا.. مرت دقائق كسر فيه الضابط هذا الجو المشحون فطلب قدحًا من القهوة رشفه وهو يتأمل بعناية كوب الماء الذي تجرعه المتهم بنهم كأنه كلب ظمآن، ثم سأله بلهجة باردة ودخان سيجارته يفوح في الغرفة..

– والآن أخبرني يا بطل اسمك بالكامل وعمرك ووظيفتك وعنوانك؟!

فأجاب المتهم في امتثال:

– أحمد محمود سيد البكل.. 35 عامًا.. مدرس في كلية الفنون الجميلة.. أسكن في شارع أبو بكر الصديق ببولاق الدكرور..

كان يوسف يتابع ما يدور من الخارج وهو غير مقتنع داخله بأن هذا الشخص البائس هو السفاح.. لقد كان دائمًا يتخيل زارا أقوى، وأمكر من هذا.. ثمة شيء خطأ.. ثمة شيء خطأ..

أفاق يوسف من خواطره على صوت المتهم الذي اخترق رأسه وهو يجب بنبرة مخيفة عن الرائد محمد..

– نعم.. أنا السفاح..

فقال له وهو يلوك لسانه داخل فمه..

– تمام..أنا أحترم الذين يقرّون بجرائمهم.. هذا يوفر على الطرفين الكثير كما أنه يصب في مصلحة المتهم في النهاية، والآن أخبرني كيف ارتكبت هذه الجرائم؟!

فتهلّلت أسارير أحمد فابتسم ابتسامة واسعة كشفت عن نواجذه.. ثم قال بنبرة سعيدة:

– امممم..هذا السؤال صعب كما أن إجابته ستخل بالتفاصيل.. لذا أُفضل أن نتطرق إلى واحدة واحدة..ما الجريمة التي تحب أن أسردها لك؟!

فأخرج الضابط محمد من جعبته عبوة سجائر وأشار لأحمد أن يلتقط واحدة منها لكنه اعتذر بأنه لا يدخن.. فاستلّ واحدة ثم أشعلها ونفث دخانها في تلذُّذٍ وهو يسأله:

– كما يحلو لك.. المهم أن تحكي لنا بكل صدق.. هل لديك أنت جريمة مفضلة؟!

فابتسم أحمد مرة أخرى حتى بدا طرف لسانه وهو يهز كتفيه:

– كل جرائمي قريبة إلى قلبي.. كل جريمة أرتكبُها أشعرُ بأنني عمل فني مميز.. هذه عادتي منذ الصغر.. كل عمل أؤديه أتقنه كأنه آخر عمل لديّ وأفضله.. لوحاتي شكّلت مُتحفي الخاص.. كنت مُصرًا أن يكون الأعظم على مر العصور..

ثم أغمض عينيه والتقط نفسًا عميقًا منتشيًا كأنما يعيش حلمًا رائعًا.. توهجت فوهة سيجارة الضابط "محمد" في غِلٍّ فقال بصوت جافٍّ في نفاد صبر:

– تمام..إذن قُصَّ عليَّ ما حدث منذ البداية.. أول جريمة فعلتها..

فأجابه أحمد على الفور وهو مبتهج:

– تقصد لوحتي الأولى.. حسنًا.. سأخبرك بكل شيء.... anatomical pieces..

أصدُقك القول.. كانت لوحة جميلة للغاية.

لقد أديتُ عملًا رائعًا فيها بالفعل.. لم أكن اتوقع أن تخرج على هذه الصورة.. كانت الفنانة مريم جميلة جدًا.. صحيح صوتها أقل من العادي.. لكن جسدها بديع للغاية..مهرة جامحة استطاعت أن تلوي كل أعناق الرجال لدرجة أنني ذاتي تمنيتها.. لكني متفانٍ في عملي.. لا يمكن أن أهدر مجهودي من أجل خيالات شهوانية مؤقتة، ومع ذلك فقد استمتعت بتقطيع كل قطعة في جسدها..الذراعين والساقين الملفوفين، النهدين البارزين، الخصر المكتنز، الوجه الأبيض الحليبي.. طعنتها باستخدام خنجر أثري ورثته عن جدي من قبل يعود إلى عصر المماليك لكنه احتفظ بحدته إلى الآن..كانت الطعنة الأولى هي الأصعب لكن بعد ذلك لم أشعر بيدي..كأنما تحولت إلى روبوت أطعنها أوتوماتيكيًا..حتى تحول لون مياه الحوض إلى بحيرة دموية صغيرة سقطت فيها جثة هامدة، وبعدما اطمأننتُ إلى أنها فارقت الحياة تمامًا..أخرجت من حقيبتي الجلدية منشارًا كهربائيًا جنزيريًا.. عندما اشتريته سألني البائع بتشكك هل أملك حديقة لأنه يستخدم بالأساس في تقطيع وتشذيب الأشجار لكني كذبت عليه وأجبت عليه بالإيجاب.. كان بالفعل هو الأداة المثالية.. ضغطتُ على زر التشغيل، فأصدر هديرًا مزعجًا أخفيته برفع صوت التلفاز.. ثم وجهت شفرته الحادة نحو جسدها وأنا مستمتع بكل لحظة والدماء تتناثر على وجهي..

آااااااه.. كانت لوحة عظيمة جدًا.. أليس كذلك؟!

لوهلة سرت في جسد الرائد "محمد" قشعريرة لكنه حاول وأدها وجاهد ألا تنعكس على ملامحه.. هذا ليس إنسانًا طبيعيًا.. هذا وحش حقيقي..كيان غير بشري ينتمي إلى روايات الرعب..فألقى السيجارة والتقط أخرى ودسها في فمه.. ثم سأله بعصبية:

– آه جيدة.. لكنك لم تخبرني عن دافعك للقتل.. لماذا اخترتها؟!

– اممم..كانت ضحية مثالية.. فنانة شهيرة في أوج مجدها.. وحيدة في غرفتها.. كما أن التوقيت ساعدني على تنفيذ الجريمة.. ليلة رأس السنة البهيجة حيث سيكون الكل مشغولًا، والولوج إليها ليس بالأمر العسير.. الصراحة كان هو أسهل جزء.

– هذا يعني أنك استخدمت الكروت الممغنطة في دخولها؟!

– آاا.. آاااه.. بالطبع لا يوجد حاجة إلي الاقتحام.. الكروت الممغنطة مع كل شخص.. عامل التنظيف في الدور.. موظف الاستقبال، ومدير الفندق.. كما أخبرتك كان جزءًا سهلًا..بضع جنيهات لها القدرة على تطويع أحدهم ليمنحك أي شيء يطلبه..

أسند الضابط ذقنه على كفه ثم سأل المتهم وهو يتخيل مشهده وهو يمثل بالضحية المسكينة.. مشهد مريع لم يَرَ مثيلًا له إلا في أفلام saw ..

– أها.. معك حق.. لكنك لم تخبرني لِمَ استخدمت زيًّا للتنكُّر؟ ثم ألم تخشَ أن المقطع الذي سجلته قد يساهم في كشفك؟!

مدَّد أحمد ظهره للخلف وهو يقهقه..

– هاهاهاها.. كان هذا أمتع جزء.. بطبيعتي أنا مُولع بالتنكر.. التخفي يفرض مزيدًا من الرهبة والغموض..جاءتني الفكرة خليطًا من فيلم v for vandetaa ورواية الجحيم لدان براون حينما ارتدى البطل الشرير قناع طبيب الطاعون.. فينيسيا مشهورة بهذه الأقنعة.. والصراحة عندما رأيتها على أحد مواقع الشبكة العنكبوتية خلبت لبي من الوهلة الأولى.. قلت هذه هي.. هذه هي..

أما الفيديو فهو نوع من التوثيق.. التاريخ يعجُّ بالمؤرخين الكاذبين الذين يزيفون الحقائق، وقد أردتُ تخليد هذه اللحظات العظيمة للأبد.. أظنُّ أنني بدوتُ رائعًا في هذا المقطع..

ما رأيك أنت؟!

***

(3)

اندفعت سيارات الشرطة نحو مسكن المتهم، فتحولت منطقة سكنه في خلال دقائق معدودة إلى ما يشبه ثكنة عسكرية..

كان البواب ذو وجه كالح يضع ساقا فوق ساق وينفث دخان النارجيلة في تلذذ،حتى نهض مفزوعًا لما رأى رجال الشرطة أمامه.. اتجه نحوه يوسف بوجه صارم ثم سأله بصوت جهوري:

– هل هذه العمارة التي يقطن فيها أحمد محمود سيد البكل؟!

فأجاب البواب مفزوعًا وهو يرتجف كعصفور مُبتلٍّ:

– نعم يا بيه.. في الدور الثامن..

فأشار يوسف إلى أحد العساكر بنبرة آمرة:

– حسنًا.. أحضره معنا يا عسكري..

ثم اصطحبه أحد العساكر وهو قابض على ذراعه كالدمية حتى قادهم إلى الشقة..لكن يوسف ورجاله لم يتمهلوا.. أخرجوا أسلحتهم ثم أطلقوا عدة طلقات نارية على الكالون حتى تنازل عن حراسته للشقة وانفتح الباب على مصراعيه.. كانت الشقة بالداخل سريالية الطابع.. يوحي مظهرها كأنما يعيش فيها خرتيت وليس كائنًا بشريًا.. تتألّف من ثلاث غرف..الصالة وغرفتين داخليتين.. إحداهما خصصها للنوم، والأخرى حولها إلى مرسم ومكتب في آن واحد.. في الصالة كانت توجد كراسي عتيقة خضراء أشبه بطحالب المستنقعات، أما في غرفة النوم فتواجد سرير خشبي متوسط الحجم ومنضدة بائسة زجاجها مشروخ وفي الأعلى لوحة لمشهد طبيعي لكوخ داخل غابة.. أما الغرفة الثالثة فكانت مختلفة عنهما قليلًا.. فوجدت فيها منضدة من العاج أعلاها مكتبة يدل لمعانها على أنها مطلية حديثة مكتظة بالكتب والمراجع.. بينما ملقى على الأرضية العديد من اللوحات المكتملة.. لكن المميز أنه على الجدار المقابل للمكتبة تقبع ملصقات..اقترب يوسف منها وعندما بدأ في تفحُصها وجدها ملصقات من جرائد الأخبار عناوينها كالتالي:

الفنانة مريم عزت تلقى ميتة بشعة على يد سفاح مجنون..

الصور الأولى لجثة الفنانة مريم.. السفاح يهدد بجريمة أخرى..

مهاجر سوداني يلقى مصرعه على يد السفاح.. والجالية السودانية مشحونة..

السفاح لا يتوقف ويقتل قاضيًا مرموقًا ونادي القضاة يعقد اجتماعًا عاجلًا ..

الداعية تنتهي سيرته نهاية مؤلمة.. من يوقف السفاح؟! إلخ .. إلخ..

وُجد أيضًا على الجدار لقطات للجثث مقتبسة من مقاطع الفيديو التي نشرها السفاح تم تكبيرها.. بينما على منضدة خشبية أسفلها ظهر حاسوب آلي.. فقام يوسف بتشغيله وتصفحه لكنه لم يجد شيئًا ذي قيمة، فقط كتبًا ومراجع فنية.. تاريخ الفن لهالدين ماكفال.. تاريخ الرسم الحديث لريتشارد موثر.. ستة عقود من الرسم لراندال دافيس.. إلخ.

لكن في ملف آخر ولج إليه عثر على صور مفبركة عن طريق الفوتوشوب.. الأولى يظهر فيها وهو يتلقى جائزة الأوسكار.. الثانية، وهو يصافح رئيس الجمهورية الذي يسلمه جائزة الدولة التقديرية ويقلده وشاح النيل،والثالثة وهو يسير على السجادة الحمراء كنجوم السينما، ويشير للجماهير وعدسات التصوير مسلطة عليه.. إلخ من صور مختلقة جودتها بائسة..

أغلق يوسف الجهاز شاعرًا بالاختناق والفشل الذريع. فبعد هذه الجولة لم يعثروا على دليل واحد قاطع، فقط بضع صور ولوحات تشير إلي أن هذا الرجل مريض نفسي ومهووس بالشهرة، ومعنى ذلك أن السؤال المهم لم تتم إجابته .. هل هذا الرجل هو فعلًا السفاح؟!.

***

(4)

كان يوسف في طريق العودة شاردًا، والعسكري بجانبه يقود السيارة.. كان عقله مشحونًا بالأسئلة.. هل هذا الشخص بالفعل هو القاتل، ولو كان هو فكيف فعلها، فأين الجثث؟! هل فعلًا انتهي الأمر بكل هذه السهولة؟!كان حدسه البوليسي يخبره لا.. هناك شيء خطأ، هذا شخص إما مدسوس أو مهووس يضللهم..

انتزعه من شوارده هاتفه الذي يرنُّ فالتقطه ليجد د.ياسمين تتصل به، فأجابها ليجد صوتها الدافئ يحدثه:

– مباااااااارك ياسيادة المقدم.. تهانئي لكم أنكم عثرتم على القاتل، لكن أولم يكن من الأولى أن تخبرني بما إننا في فريق واحد.. هاهاهاها؟!

صُدم يوسف لكلامها فقال بصوت يتظاهر بالمزاح ليتغلب على دهشته..

- صدقيني كنت سأخبرك في وقتها.. لكننا كنا مشغولين بمداهمة منزله.. لكن أخبريني كيف عرفتِ بالأمر؟!

ردّت ياسمين مبتهجة..

- صدّقني أنا سعيدة جدًا لأنني شاركت معكم.. صحيح أنني أخطأتُ في بعض الاحتمالات لكن لا يهم، المهم أننا تخلصنا من هذا الكابوس.. ينبغي أن أقابلك في أقرب فرصة حتى تخبرني كيف عثرتم عليه..

فضحك يوسف ثم أعاد عليها السؤال مجددًا..

- لا تقولي ذلك يادكتورة، لقد ساعدتني جدًا، يكفي أنك أنرتِ بصيرتي عليى أشياء كنتُ غافلًا عنها،عامة الأمر لم يُحسم بعد.. لكنك إلى الآن لم تخبريني كيف عرفتِ بالأمر؟

فأجابته ياسمين..

- الأمر تتناقله كل وسائل السوشيال ميديا، حتى أن أغلب القنوات التلفزيونية الإخبارية تنوّه بأنه بعد قليل سيعقد وزير الداخلية مؤتمرًا صحفيًا ليعلن فيه عن هوية السفاح وكل التفاصيل المتعلقة بعملية القبض عليه..

فبُهت يوسف كأن أحدًا ضربه بمطرقة حديدية على رأسه.. كانت الصدمة قاسية للغاية.. ومفاجئة.

(5)

وقف وزير الداخلية أمام منصة عليها عشرات الميكروفونات المصرية والأجنبية وهو يحملق في المراسلين الجالسين أمامه كالصقر بينما عدسات الكاميرات لاتتوقف عن إطلاق وميض الفلاش والتقاط الصور له.. كان يشعر بنشوة هائلة تسري في عروقه.. لقد حانت لحظة الانتصار بعد طول انتظار.. أخيرًا سيتخلص من صداع هذا السفاح.. هذا المأزق الذي كان يهدد مقعده هو ذاته.. فالتقط نفسًا عميقًا ثم بدأ الحديث بصوت فخم:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. أعلم أنكم في الأيام الماضية قد عانيتم الأمرين بسبب ظاهرة السفاح والأخبار المخيفة التي تم تداولها بشأنه والتي شكلت بيئة خصبة ومرتعًا تنمو فيه شائعات كدرت صفو الأمن العام، وقد ضاعف من حجم الخوف والرعب أسماء الضحايا الذين اختارهم لتنفيذ مخططه الدموي والمقاطع المرئية الشنيعة التي بثها على صفحات التواصل الاجتماعي مواقعه..

وإنني في هذا الصدد قبل أن أنقل لكم البشري السعيدة أتوجَّه بشكر خاص لمدير أمن القاهرة ومدير مباحث العاصمة والفريق الذي يعمل تحت إمرته والذين بذلوا جهدًا هائلًا في تتبُّع آثار المتهم والعثور عليه حتى تُوجت جهودهم بالنجاح في النهاية.. ففي تمام الساعة العاشرة صباحًا ودقيقتين نجحت قواتنا في إلقاء القبض على المدعو أحمد محمود سيد البكل القاطن في حي بولاق الدكرور بعد تحريات مكثفة أشارت إلى تورطه في كل الجرائم التي حدثت بالفترة الأخيرة بعد مراقبة مسكنه فترة طويلة رصدنا فيها كل تحركاته المريبة..

وبالفعل عند مداهمة مسكنه تم العثور على الأدوات التي استخدمها في جرائمه، ولما واجهناه في التحقيق بما عثرنا عليه من أدلة اعترف بأنه هو السفاح الملقب باسم "زارا" وأقر بكل جرائمه البشعة وأفاد بأنه تخلَّص من جثث الضحايا في وقت لاحق في مياه النيل، وإليكم فيديو أخير للقاتل، وهو يعترف فيه بكل أعماله الآثمة التي اقترفتها يداه..

بعدها ظهر على شاشة كبيرة بحجم الحائط مقطع فيديو يظهر فيه أحمد، وهو ينظر للكاميرا ويتحدث بنبرة واثقة..

اسمي أحمد محمود سيد البكل.. مواليد 13- 11- 1980.. مدرس في كلية فنون جميلة جامعة القاهرة.. أقطن في شارع أبو بكر الصديق بحي بولاق الدكرور بالقاهرة..

أعترف بمحض إرادتي دون أي إكراه أو إجبار أنني السفاح المدعو زارا الذي دبَّر كل هذه الجرائم الفترة الماضية نظرًا هوسي بفلسفة نيتشة المتمثلة في كتابه "هكذا تكلم زرادشت" وأعمال فنية بشعة كنتُ أحاكيها..فالفنانة "مريم عزت" قتلتُها ومثّلت بجثتها طبقًا للوحة قطع تشريحية لويليام بليك.. بعدها نويت أن أعيد تمثيل لوحة زنجي يُعدم حيًا فعثرت على أحد الأفارقة بالمصادفة، وقمتُ بتخديره واختطافه ثم قمت بإعدامه على منصة خشبية.. أما الجريمة الثالثة فاخترت لها قاضيًا لأنني كنتُ أراه منافقًا قاسي القلب فاختطفته في طريق الإسكندرية الصحراوي بعد أن صدمت سيارته بمقطورة ثم قمت بتعريته وتثبيته على طاولة خشبية وسلخته محاكاة للوحة "حكم قمبيز"، ونظرًا لكراهيتي لرجال الدين وشغفي بلوحة البابا إينوسنت العاشر خططتُ لاختطاف الداعية "يحيى زيدان"، فأعددتُ له كمينًا في التجمع الخامس ثم أطلقتُ رصاصات من مسدس مزود بكاتم للصوت على سائقه، واختطفته وخدرته بالكيفية السابقة نفسها.. ثم قمتُ بحرقه فيما بعد، وأخيرًا اختطفت الموسيقار العالمي "إبراهام لويس" بعد أن قتلت سائقه الخاص ومدير الأوبرا في أثناء الطريق للفندق، ثم سلخته مثل لوحة "سلخ مارسياس"، وأقرُّ أنني كنت أنتوي تنفيذ مخططات شيطانية أخرى لولا أن قوات الأمن ألقت القبض عليَّ.

بعدها اسودت الشاشة، ليقول وزير الداخلية بنغمة ساخرة ملوحًا بيمناه..

– وهكذا انتهي زارا..

ثم ضجت القاعة بالتصفيق.

***

(6)

كان يوسف يستمع إلى فعاليات الصحفي وهو يغلي كمرجل بخاري.. يشعر بأنه خُدع.. كل ما قيل محض تلفيق.. لقد استعجلوا الإعلان عن القاتل من أجل إنقاذ رؤوسهم من مقصلة الإقالة..

فنظر الرائد محمد إلى يوسف وهو يسأله..

– ما رأيك فيما حدث.. ما العمل الآن؟!

لكن يوسف لم يجبه فقد كان شاردًا في عوالم أخرى.. حقًّا ما العمل؟! المفترض على حسب كلام الوزير لقد انتهى كل شيء.. لكن لا يوجد دليل على حقيقة أن هذا المخبول السفاح سوى اعترافه.. فلا هم حصلوا على أداة جريمة.. أو جثة.. أو حتى أي دليل يشير من قريب أو بعيد إلى حقيقة ارتكابه للحادث..

فور أن وصل يوسف المديرية اتجه إلى مكتب اللواء ضرغام ثائرًا كتنين، لو اقترب منه شخص لأحرقه بنيران غضبه.. لم يراعِ حتى آداب الاستئذان أو فرق الرتب، لم يقرع الباب بل أطاح به بيده كثور هائج.. في ذات اللحظة التي كان فيها اللواء ضرغام على مكتبه مشغولًا بقراءة أحد الملفات حتى فوجئ بهذا الثور المندفع في مواجهته فأجفل..فاندفع يوسف ناحية ضرغام كالقذيفة والشرر يتطاير من عينه:

– هل كنت تخدعني يا سيادة اللواء؟! هل تخدعوننا؟! من قال إن هذا المخبول القاتل؟! مَن؟!

لكن ضرغام صاح فيه محاولًا كَبْحَ جموحه بالصوت المرتفع..

– كيف تجرؤ يا سيادة المقدم على أن تدخل مكتب رئيسك بهذه الطريقة الفجة؟! لو سمحت اخرج خارج المكتب الآن قبل أن أتخذ إجراء لن يروق لك..

انفجر فيه يوسف كبركان فيزوف..

– تطردني؟! ترسلوننا لتفتيش بيت الرجل ثم تعلنون في اللحظة نفسها أنه القاتل في مؤتمر صحفي عالمي.. هل أبدو لك كخروف أبله؟!

فصرخ فيه ضرغام قائلًا:

– يا أحمق هذه سياسة لا يفهمها أمثالك من الحمقى.. الكل كان مهددًا بالإطاحة من مقعده بسبب فشلك أنت وفريقك العظيم.. لو كنت تعملون كما ينبغي لما وصلنا إلى هذه المرحلة وقد جاءت فرصة اعتراف هذا المخبول لتنقذ رؤوس الجميع.. صدقني هو القاتل.. لا يوجد شخص يجرؤ على الاعتراف بارتكابه هذا الكم من الجرائم لأنه يعلم أن حبل المشنقة في انتظاره..

– لكننا لم نعثر علي شيء.. لم نجد دليلًا واحدًا يؤكد كلامه..

– مسألة عدم عثوركم على أدلة فهذا يرجع إلى براعته المتناهية وفشلكم كالمعتاد..لقد انتهت القضية يا سيادة المقدم.. لقد حَلَّ اللغزُ نفسه بنفسه، والآن لقد انتهى الكلام بيني وبينك.. اعتبر نفسك موقوف عن العمل بتهمة التعدي على رئيسك المباشر في العمل..

– موقوف..تلفقون التهم ثم توقفني عن العمل.. أنت فعلًا وغد.. أنت أسوأ ضابط شرطة عرفته في حياتي..

– اخرررررج.. اخررررج..

ثم أشار إليه ضرغام بالخروج، وهما يتبادلان نظرات الكراهية، فبصق يوسف على الأرض ثم غادر المكتب.

***

(7)

– أهلًا بكم في حلقة جديدة من برنامجكم **On Air**

وقف المذيع يحدق إلى الكاميرا مُبتسمًا حتى ظهرت أسنانه المصقولة بعناية وهو يمسك بعدة كروت..

– أخيرًا انتهينا من السفاح..اليوم تم حلُّ اللغز.. بعد خمس جرائم بشعة أخيرًا ألقت الداخلية القبض على السفاح الشهير بزارا.. لقد انتهى الكابوس أخيرًا..يمكنكم الآن أن تأمنوا في بيوتكم..فاليوم أعلن وزير الداخلية في مؤتمر صحفي عالمي تمكن الشرطة من إلقاء القبض على السفاح المختل الذي ألقى الروع في قلوب المصريين..المختل اسمه أحمد محمود سيد البكل.. مدرس في كلية الفنون الجميلة، وبدلًا من أن ينشغل بتخريج أجيال مبدعة ذات حسٍّ فني وذوق جمالي عالٍ استغل ثقافته في ترويع الآمنين وقتل الأبرياء وبث مقاطع تظهر

ساديته وتشوهه النفسي.. لكن ربك لبالمرصاد، فلا يوجد شيء في التاريخ اسمه الجريمة الكاملة، ومهما تكن مهارة أي مجرم ففي النهاية لا بد أن يخطئ ويسقط في فخ من شر أعماله.. فليتنفس الجميع الصعداء.. لقد زالت الغُمة أخيرًا، والآن معنا على الهاتف سيادة الوزير ليروي لنا حيثيات القبض على السفاح..

– أهلًا ياسيادة الوزير.

– أهلا يا أستاذ شاكر.

– مبااااارك القبض على السفاح.. لقد أثلجتم صدورنا يا سيادة الوزير..

– الله يبارك في حضرتك.. لقد بذلت الداخلية جهودًا شاقة رغم كل الانتقادات والافتراءات عليها.. لكننا كنا صامدين كحجر الصوان.. فعملنا في صمت على الرغم من أن كل الخيوط كانت مبتورة.. صدقني كانت قضية في منتهى الصعوبة.. وكل شخص عمل في هذه القضية يستحق وسامًا من الدولة..

– بالتأكيد وأنا أدعو سيادتك للتصوير معك في أقرب فرصة حتى تحدثنا عن كواليس القبض عن السفاح.. لكن أخبرني متى نراه على حبل المشنقة؟!

– هذا شيء يشرفني بالطبع.. اعتبرني مدعوًّا عندك غدًا.. أما المسألة الأخرى فهي مسألة وقت، فقريبا نراه بالبذلة الحمراء حتى يلاقي هذا الآثم الجزاء العادل والقصاص الذي يستحقه..

– شكرًا سيادة الوزير.. بالتأكيد كلنا فخورون بما يفعله رجال الشرطة الذين يحملون أرواحهم على أكفهم لحمايتنا، والآن سنفتح الخط حتى نستمع إلى تعليقاتكم بعد هذا الخبر المبهج حتى تخرجوا المكبوت في الصدور..أهلًا بك يا أستاذ لؤي.. يسعدني أن تكون أول مداخلة..

– هاهاها..أشكرك جدًا يا أستاذ شاكر.. صدقني كنت أتطلع إلى هذه المداخلة منذ أمد بعيد.. شخصيًا كنت أرغبُ في إجراء حوار كامل معك..

– بالتأكيد الداخلية أدت مجهودًا عظيمًا.. بمناسبة إلقائهم القبض على السفاح الذي أزعج سكان القاهرة وأرعبهم ماذا تودُّ أن تقول لرجال الشرطة؟!

– هاهاهاها.. بالتأكيد لقد أدوا عملًا رائعًا.. فهم كدأبهم عماد الوطن ودرع له..لقد مررنا جميعًا بلحظات صعبة..شخصيًا أنا وعائلتي كنا مرعوبين ونحن نتجول في شوارع المدينة..كان مجرد النزول من البيت مغامرة محفوفة بالمخاطر..

– بالتأكيد هذا كان شعورنا جميعًا.. لكن الحمد لله أن هذا الوضع قد انتهى بلا رجعة.. والآن هل هناك أي شيء آخر تحب أن تضيفه؟!

– آاااه نعم.. أحب أن أهدي للداخلية لوحة جديدة بهذه المناسبة..

– ماذا تقصد.. هل أنت رسام؟!

– نعم بالفعل.. فنان من طراز خاص..هاهاهاها..في مقابر السيدة العائشة على إحدى الأشجار ستجدون لوحتي الجديدة تهنئةً لكم بالقبض على السفاح المزيف..هاهاهاهاها.. محاكاتي الجديدة لعبقرية "فرانشيسكو جويا".. كوارث الحرب.. Disasters of the war..

ثم أقفل الخط.

***

(8)

كانت عجلات سيارات الشرطة تدور بسرعة على الأسفلت في طريقها إلى مقابر السيدة عائشة..تنهب الطريق نهبًا كأنها تخوض سباق فورميلا فيما أبواقها تُدوِّي بعنف كطائر غاضب يصرخ.. هبطت البيادات السوداء المميزة لجنود الشرطة فتزلزلت الأرض من تحت أقدامهم.. كانت قوة كاسحة كفيلة باحتلال مدينة.. فترجل الرائد محمد من السيارة، وخلع نظارته السوداء، وهو ينظر في اتجاه المقابر.. ثم أخذ نفسًا عميقًا وهو يضيق عينيه كالصقر..

كان القمر غائبا في هذا اليوم كأنما قرر أن يرحل عن الأرض في هذه الساعات الكئيبة.. السماء سوداء معتمة كقطعة من الجحيم، بينما الخفافيش تحلق في الأفق وعيون البوم المضيئة تسطع بدلًا من النجوم.. السكون باسط جناحيه تخترقه بين الفينة، والأخري أصوات نعيب البوم وصفير الصراصير بينما الموتى يتساءلون في قبورهم:

هل جاء كل هؤلاء الجنود لمطاردهم في العالم الآخر مرة أخرى؟!

تقدمت القوات ببطء شاهرين أسلحتهم، يتقدمهم عساكر ممسكين بكشافات وكلاب جيرمان شيبرد المفترسة التي تتشمم ما حولها بحثًا عن أي شيء مشبوه.. حتى عثروا على آثار جذوة نيران وفحم وبراد شاي يبدو أنها لحارس المقبرة الذي كان يعد شاي التعسيلة ليؤانسه في نوبتجيته الليلية لكنه اختفى من الجوار.. كانت الأعصاب متوترة والأعناق مشدودة.. يمضون بتمهل كأنهم يسيرون داخل حقل من الألغام وليس داخل المقابر.. فالظلام هو السلطان لا يُبدده سوي إضاءات شاحبة من أعمدة نور متهالكة زادت من مشهد الرعب.. حتى رأى أحدهم ظلًّا ممدودًا فأطلق النيران هيستريا، ثم توقف لما سمع صوت مواء ممطوط أتبع بخرخرة.. فاقتربوا بحذر ليجدوا جثة صغيرة لقطٍ غارقة في بحيرة من الدماء من حظِّه البائس أنه قرر أن يتجول في المقبرة في هذه الساعات النحسات.. فصرخ الرائد محمد في هذا الجندي بعنف..

– انتباه ياعسكري..انتباااااه..لا يطلق أحد النيران قبل أن أصدر أوامري..

بعدها استمروا في تمشيط المقابر بحذر حتى جُنت الكلاب فجأة.. فأخذت تنبح بعنف كأنها رأت شيطانًا، فأفلتت من عقالها وركضت ناحية إحدى الأشجار.. فتلى العساكر آيات القرآن وهم يرتعدون.. ثم اقتربوا ببطء لتتضح الرؤية رويدًا رويدًا،حتى وجدوا أنفسهم في

مواجهة شجرة تحمل نوعًا غريبًا من الثمار.. طلعها كأنه رؤوس الشياطين..فسلطوا أضواء الكشافات عليها لترتجف قلوبهم من الرعب.. فمن فروع الأشجار تدلت رؤوس مقطوعة وأجساد مصلوبة، أما على جذعها فسطع توقيع بالدم..

كوارث الحرب.. **Disasters of the war**

زارا

***

8

Do you know how I got these scars ?!!

(1)

كانت زخات المياه الدافئة تنساب بغزارة من فتحات الدش على جسد يوسف العاري فحفزت تدفق الدماء في عروقه في ذات اللحظة التي كان تروس عقله تدور بقوة.. كأن كل صور ذكرياته قررت أن تتداعى إلى رأسه وتحاصره في هذه اللحظة..الآن لأول مرة يشعر بمرارة الفقد..لقد فَقَدَ كل شيء الآن..زوجته..طفلته،وحتى وظيفته.. آخر حصن نفسي كان يحتمي بجدرانه من الاكتئاب.. لكنه كان مُحقًا في غضبه..لقد خدعه ضرغام ورؤساؤه..تعجلوا الإعلان عن السفاح دون تحقيق أو تمحيص فظهر أمام العامة كذبهم وضربهم السفاح الحقيقي ضربة قاسية في مقتل فخر بنياهم من قواعده وتحولت الاحتفاليات إلى فضيحة مدوية..

اتصل به محمد وأخبره ما حدث.. فور أن علم ضرغام بعثورهم على جثث جنرالات في الجيش ممثل بها ومعلقة على الأشجار انتابته

ثورة من الجنون.. فغادر بيته متجهًا إلى الزنزانة المتحجز به المتهم الكاذب.. ثم اندفع داخلها كالإعصار، وأخذ يكيل له الضربات واللكمات لا يبالي أنه قد يؤدي إلى مقتله بينما الآخر لا يتكلم.. فقط يضحك، ويقهقه كالمجانين.. حينها أدركوا الحقيقة.. لقد وقعوا في شباك كاذبٍ مُختلٍ..حتى نجح في تخليصه الحراس وأبعدوه عنه.. كانت هذه المرة الأخيرة التي يدخل فيها المديرية .. فأُطيح به من منصبه مع مدير الأمن ووزير الداخلية على إثر هذه الفضيحة..

ربما ذهب غيظه بعض الشيء بعد تبيان خطأ رئيسه السابق.. لكنه أيضًا شعر بالفشل.. ما زال إذن القاتل الحقيقي طليقًا حُرًّا يفعل ما يحلو له.. كانت اللقطات تتدافع بعنف داخل رأسه كأنه يقوم باستعراض تريلر لفيلم.. فيديوهات زارا المتتالية.. أقنعته الغريبة التي يستبدلها كل مرة.. مشاهد الجثث البشعة والتي سماها بلوحات.. تقرير الطبيبة ياسمين.. إلخ.. كان عقله يعمل في أوجه.. يعصف هذه الذكريات بحثًا عن أي ثغرة.. أي ثغرة.. لقد ماتوا كلهم ببشاعة.. تخيل أن الفنانة الرقيقة مريم عزت قتلها هذا المخبول وطعنها وهي تستحم مثله.. شيء مروع بالتأكيد.. لقد مزقها هذا السادي إلى أجزاء كالأنعام.. ثم قام بالتمثيل بجسدها ورسم ابتسامة مرعبة على وجهها الفاتن.. هنا رفع يوسف رأسه وضرب الجدار بقوة حتى كاد يخرقه حينما جال في رأسه خاطر ما.. تبًّا! كيف لم يلاحظ هذا من قبل؟!

قام يوسف بتجفيف جسده سريعًا.. ثم لفَّ المنشفة حول جذعه وهُرع من الحمام إلى غرفته كالفهد.. ثم فتح حاسوبه ودون على موقع جوجل عدة كلمات..

لأول مرة يلاحظ أن هناك شيئًا في غير موضعه.. اللوحة الأولى التي قام زارا بتقليدها اسمها anatomical pieces.. أي كان من المفترض أن يقطع أطرافها ويركمها فوق بعضها البعض ثم يترك الجسد على حاله.. ربما لو كان مجرمًا عاديًّا كان سيقول إن تشويهه لجسد الجثة من قبيل إرضاء نزعته السادية فحسب.. لكنه تعلم مع هذا المختل أن كل شيء مقصود وأن كل أثر يتركه يرمز لشيء ما.. فالابتسامة الموجودة على وجه القتيلة لم تكن موجودة في اللوحة الأصلية.. هنا دوت في عقله كلمات ياسمين وهي تصف هذه الابتسامة ..

"لكن بصراحة هناك بعض التفاصيل التي تحيرني..بالذات في الجريمة الأول والتي قتل فيها الفنانة "مريم عزت" وتماهى فيها مع لوحة Anatomical pieces ففي اللوحة الحقيقية تظهر أطراف مكدسة فوق بعضها البعض.. وهو كذلك فعل مع أشلاء مريم.. لكن الذي أتساءل عنه ومغاير للوحة الأصلية .. هو لماذا قام بتشويه وجهها؟ لماذا شقَّ وجهها من الأذن للأذن مُحدثًا هذه الابتسامة الشهيرة المسماة بابتسامة جلاسكو؟"

- ماذا تُدعى؟ ماذا تُدعى؟ نعم.. اسمها..ابتسامة جلاسكو.. هي جلاسكو بالفعل..

كَتَبَ يوسف هذه الكلمات على جوجل ثم ضغط على موقع الويكيبيديا.. ليجده يعرف ابتسامة جلاسكو بأنها قطع في الوجه من الفم للأذن ليترك ندبة عريضة أشبه بضحكة باستخدام سكين أو قطع مكسورة من الزجاج.. ثم أضاف أن سبب التسمية لأنها ظهرت أول مرة في جلاسكو في إسكتلندا في عشرينيات القرن الماضي بفعل العصابات والتي أصبحت شائعة في إنجلترا بالذات بين أوساط مشجعي نادي تشيلسي الهوليجانز المجانين المدعوين ب Chelsea headhunters . ثم أسفل هذه المعلومات ظهرت كلمات أخرى مفتاحية تتعلق بهذه الابتسامة..

دخل على النتيجة الأولى والتي كانت تحمل اسم "كوشيساكي أونا".. فوجدها أسطورة يابانية عن امرأة اشتُهرت باسم ذات الفم الممزق والذي ظهر شبحها بعد قتل زوجها لها، حيث إنها تظهر في الشوارع ملثمة تخدع المارة بعينيها البريئتين الجميلتين وعندما يقف لها أحدهم.. تُميطُ اللثام لتكشف عن وجهه المرعب المشقوق ثم تسأله بدلال والآخر يرتجف..

- ما رأيك.. هل ما زالت جميلة؟!

وأيًا كانت إجابته فالذي يقابلها يلقى مصرعه على الفور.. كان من ضمن النتائج أيضًا جوكر "هيث ليدغر" والذي اشتُهر بهذه الابتسامة وبجملته الأيقونية في الفيلم..

-Do you know how I got these scars ?!!

أما النتيجة الثالثة فكانت أكثرهم إثارة.. الداليا السوداء.. والتي عندما ضغط عليها وولج إلى صفحتها وجد أنها تتحدث عن فتاة قُتلت في لوس أنجلوس عام **1947** اسمها إليزابيث شورت، والتي قام القاتل بقطع جسدها من المنتصف من منطقة الخصر وتشويه وجهها على نحو بشع برسم هذه الابتسامة المرعبة عليه..

ظلت هذه القضية *لغزًا غامًاض إلى يومنا هذا، فهوية القاتل الحقيقي مجهولة إلى الآن رغم القبض علي عدد هائل من المشتبهين بهم.. كانت الجريمة مثيرة بالفعل ويوسف يطالع تفاصيلها.. لكن أكثر ما لفتَ انتباهه أن طريقة تشويه الجثة تشبه بغض النظر عن الأطراف المبتورة ما فعله المجرم في جسد مريم .. فتقرير الطب الشرعي لجثة إليزابيث شديد الشَّبه بجثة مريم كأنه يتحدث عنها.. فجثة إليزابيث تحتوي أيضًا على عدة جروح في منطقه الفخد والثدي، كما أن الجزء السفلي من جسدها بعيد عن الجزء العلوي بمقدار قدم تقريبًا، في حين كانت أمعاؤها مطوية بشكل مُرتَّب وموضوعه تحت أردافها وعلى وجهها تقبع ابتسامة جلاسكو..ثم ارتعد جسده حينما قرأ أن

إليزابيث شورت قبل مصرعها كانت تقيم في فندق "سيسل" سيء السمعة لشهرته بجرائم عديدة وقعت داخله..

شعر يوسف حينها كأن صاعقة مسَّت جسده فاتسعت عينه وتسارعت أنفاسه..كان قلبه يركض من فرط الإثارة.. فتقهقر بمقعده للخلف، وأشعل سيجارة وهو يفكر.. هذه المعلومات تقلب القضية رأسًا على عقب.. فهذا يعني أنه في الجريمة الأولى لم يقم القاتل بتقليد لوحة **anatomical pieces** فحسب..

الجزء المخفي من الموضوع أنه يُعيد تمثيل جريمة القتل الشهيرة.. جريمة قتل الداليا السوداء..في فندق يحمل اسماً شديد الشبه بمكان قتلها.. فندق سيسليا..

---

*كانت هذه الجريمة بيئة خصبة للشائعات لدرجة أن معظم الصحفيين ادعوا أنها فتاة عاهرة بينما آخرون قالوا أنها لم تستطع الجماع قط بسبب عيب خلقي فيها تركها مع أعضاء تناسلية طفولية.. لكن بشكل عام الشكوك كانت تحوم بالذات حول قاتلين.. تكهن بعض كتاب قصة الجريمة على وجود صلة بين جريمه قتل إليزابيث شورت وجرائم كليفلاند تورس، التي وقعت في كليفلاند بين **1934** و **1938** كما هو الحال مع عدد كبير من * عمليات القتل التي وقعت قبل وبعد قتل إليزابيث شورت حتى قام محققو شرطة لوس أنجلوس في النظر إلى ملفات جرائم كليفلاند في عام **1947**، ثم أدركوا في النهاية أنه لا علاقة بين الجريمتين.

اقترح أيضًا بعض مؤلفي الجريمة مثل ستيف هودل ووليام راسموسين وجود صلة بين جريمة قتل إليزابيث شورت والجريمة التي حصلت سنة **1946** وجريمة قتل سوزان ديغنان البالغة من العمر ست سنوات التي حصلت في شيكاغو.. وقد أطلقت الصحافة عليها هذا الاسم الأرملة السوداء **The black dahlia** تيمنًا بالفيلم الشهير وقتها **The blue dahlia**،حتى تم تخليد هذه الجريمة في فيلم أمريكي عام **2006** يحمل اسم الداليا السوداء من بطولة "سكارليت جوهانسون" يدعي أن إليزابيث شورت كانت فتاة تعمل في مجال الدعارة قتلتها زوجة أحد مخرجي هوليود لأنه كان مفتونًا بها.

(2)

قبل أن يدخل يوسف فندق سيسليا مرة أخرى استقبل رسالة من الرائد محمد أكدت شكوكه وقوَّت من عزيمته، فدلف الفندق من أوسع أبوابه وكله أمل في حل اللغز.. كان "سيسليا" لا يزال مُبهجاً وجذاباً.. جنة بالفعل للرفاهية.. ورغم مرور ثلاثة أسابيع تقريبًا على جريمة قتل بشعة هزت الرأي العام وشكلت بداية سلسلة متتالية من الجرائم الوحشية لكن النزلاء لم يتوقفوا عن التوافُد إليه كالهوام..

مَرَّ يوسف من آلة الإكس راي متجهًا نحو مكتب الاستقبال.. ليجد موظفًا شابًا متأنقًا جالسًا فيه.. فأخبره بهويته ثم سأله عن مكان مكتب مدير الفندق فدله على مكانه.. خرج يوسف من البهو إلى ممر ضيق..يمين ثم يسار ليجد نفسه أمام بابين ضخمين كأبواب القصور.. لا يصدق أنه بعد شهرين يعود إلى المكان نفسه.. لكنه جاء هذه المرة من أجل مهمة خاصة.. من أجل سؤال معين يريد إجابته، وربما لو صدقت هواجسه فقد وجد الثغرة الأولى في بنيان هذا المجرم الجبار..

أخبر يوسف الساعي بهويته حتى يُعلم بها المدير..فدلف إلى الداخل وغاب دقيقتين.. ثم خرج يفتح له الباب ويعطيه الإذن بالدخول.. عندما دخل رأى المدير يتكلم في الهاتف حينها.. لا يعلم هل فعلًا هو يحادث أحدًا على الطرف الآخر أم أنه يقوم بالتمثيل؟!

بالتأكيد بعد تجربة سجنه السابقة فهو يتحاشى مقابلته، ولا يستبعد أنه يظهر له في كوابيسه.. ابتسم المدير له في عجالة ثم أشار له بالجلوس.. فسحب يوسف مقعدًا، وجلس.. جال يوسف بعينه في أرجاء الغرفة يتفحصها حتى ينتهي المدير من مكالمته..كانت غرفة فسيحة للغاية..ربما وزير الداخلية ذاته لا يحلم أن يجلس في واحدة مثلها..حتى وقعت عيناه على لوحة معلقة فوق المكتب فشرد في تفاصيلها..كانت لوحة بهيجة لشاطئ جذاب..حيث الرمال الذهبية، والسماء الزرقاء الزاهية، والشمس المنغمسة في حمرة الشفق المعتمة وهي غاطسة بأكثر من نصفها في مياه البحر الفيروزية بينما طيور النورس تحلق في عاليًا.. خطفت اللوحة بصر يوسف فتمنى لو كان بإمكانه أن يسافر ويقضي إجازته في هذا المكان البعيد..أخيرًا فرغ المدير من المكالمة.. فابتسم في وجل للضابط وصافحه بحرارة معتذرا له..

– أعتذر لك.. لكنها كانت مكالمة من عميل مهم.. صدقني لو كنت أعلم بقدومك كنتُ استقبلتك الاستقبال الملائم.. صحيح.. ماذا تحب أن تشرب؟!

فلوح له يوسف معتذراً..

– لا أشكرك.. أعلم أنني جئتُ في معاد غير ملائم.. لكني لم أطق الانتظار.. هناك أمر مهمٌ أودُّ الحديث معك بشأنه..

قهقه المدير.. بدا أنه استعاد صحته وتأنقه منذ المرة الأخيرة..

– هاهاهاها.. حذارِ أن يكون بخصوص هذه القضية.. صدقني لقد أمضيتُ فترة حالكة من حينها، وأصدقك القول بعدها زرتُ أكثر من طبيب نفسي حتى نجحت بصعوبةٍ في التعافي من آثارها السلبية.. كانت بالفعل أصعب تجربة في حياتي، وعلى العموم أنا لا أمتلكُ أي معلومات.. كل ما لديَّ قلته في التحقيقات..

حاول يوسف الابتسام على مضض.. ثم قال ملاطفاً إياه:

– هاهاهاها..أعتذر لك عما صدر منا تجاهك.. لكنك أكيد تعلم أن الأمر ليس شخصيًّا فالقضية صعبة وقضية رأي عام، وهذه هي وظيفتنا للأسف..عامة لن أُهدر من وقتك الكثير..كنت أريدُ سؤالك عن شيء واحد أتمنى منك أن تجيبني، وسأنطلق بعدها وأعدُك أنك لن تراني مجدداً..

– تفضل.. ما الذي تودُّ السؤال بشأنه؟!

– كنت أريد أن أعرف لماذا طلبتم من المطربة مريم عزت إحياء حفل رأس السنة لديكم؟!

– لا أفهم السؤال.. المرحومة كانت مطربة فاتنة وصاعدة بالقوة في هذا الوقت..في أوج شهرتها، ووجودها في مثل هذه الليلة يضيف زخمًا لفندقنا ويجذب الكثير من معجبيها إلى هنا..

– أتفهَّم بالتأكيد هذه النقطة.. لكني أريد أن أسأل لماذا هي بالذات؟! أعني هناك العشرات مثلها.. ثم إنني تأكدت أنكم كنتم تعاقدتم بالفعل مع مطرب آخر..

ثم أخرج يوسف هاتفه وضغط على الصورة التي أرسلها له محمد وواجه بها المدير،ثم أردف بلهجة حاسمة..

– هذه الصورة إثبات لما أقوله.. هذ الإعلان وجدناه منشورًا في إحدى الصحف الكبيرة قبل 5 أيام من الجريمة تعلنون فيه عن إحياء المطرب "أمجد ماهر" للحفلة عندكم.. بعدها بيومين أعلنتم في الجريدة نفسها عن إحياء "مريم عزت" لحفلة رأس السنة بدلًا منه.. فلماذا غيرتم خططكم؟ مَن اختارها هي بالذات؟!

– أها فهمتُ..هذه المهمة موكلة إلى متعهد الحفلات الخاص بالفندق..

– تمام.. حسنًا.. هل يمكنني مقابلته؟!

مطَّ توفيق شفته ثم قال بنغمة ممزوجة بالأسى..

– أخشى أنك لن تستطيع مقابلته أبدًا..

هنا انتفخت أوداج يوسف فصاح في المدير غاضبًا:

– ماذا تعني؟! أنا ضابط شرطة ولديَّ كل الصلاحيات ويمكنني استصدار أمر رسمي لاعتقاله واعتقالك مرة أخرى..

لوَّح المدير محاولًا تهدئته:

– اهدأ يا حضرة الضابط.. اهدأ.. لقد أسأتَ فهمي مرة أخرى.. كل ما أحاولُ أن أخبرك به أن مستر حسن المتعهد مات للأسف.

صاح يوسف في ذهول:

– ماااات؟!

ثم صمت المدير، ومطَّ شفتيه مرة أخرى قائلًا:

– نعم مات منذ أسبوعين .. كان رجلًا طيبًا بحقٍّ.. لم يكن يستحق ميتة كهذه..

– ماذا تقصد؟!

– أقصد.. لقد انتحر.. أطلق الرصاص على نفسه..

وكانت جملته الأخيرة كالقنبلة.

(3)

في إحدى البلوكات في مدينة الشروق دلف يوسف إلي بناية متوسطة تشبه أخواهّا من البنايات المجاورة كأنها نسخة بالكربون من بعضها البعض.. ثم صعد 4 أدوار وتوقف عند شقة رقم 8.. كان الباب حالته بالية وحتى مقبضه منزوعًا.. ضغط على قابس الجرس لكنه لم يعمل كما توقَّع.. فطرق الباب بهدوء حتى أتته الاستجابة.. فتح الباب طفلٌ صغير يربو على الرابعة فطلب يوسف ببراءة منه محادثة شخص كبير، ثم لم تمرّ ثوانٍ حتى صدر صوت زاعق لامرأة تأمر طفلها بالدخول وظهرت هي.. انت امرأة في أواخر الثلاثينيات ترفل في السواد، على ملامحها مسحة من الجمال، لكنها غارقة في حزن عميم.. فسألته بنبرة صارمة..

– مَن حضرتك؟!

فكر يوسف وهلةً في الحجة التي سيطلقها لكنه وجد لسانه يتفوه بالحقيقة..

– أنا المقدم يوسف من مباحث العاصمة.. أولًا تعازيَّ الحارة لوفاة زوجك، وأعتذر لكِ لو كنتُ جئت في وقت غير مناسب..

فنظرت له السيدة المكلومة في شكٍّ ممزوج بالخوف في البداية حتى رأت بطاقة هويته فقالت في حزم يخفي قلقها:

– أهلًا وسهلًا، لكن ما شأني أنا بذلك؟!

فقال يوسف في نفاد صبر:

– حسنًا لكي أختصر الموضوع، أنا أحقق في قضية السفاح، وقد كان زوجك متورطًا فيها بطريقة ما لولا أن الموت أنقذه في اللحظات الأخيرة..

ردَّت الزوجة وهي تبكي..

– يا حضرة الضابط لقد مات المرحوم منذ أكثر من أسبوعين وقد أجريتم تحقيقاتكم وأثبت الطب الشرعي أنه مات منتحرًا..فماذا تريدون الآن منا؟! اتركوونا في حالنا..

فقال يوسف محاولًا تهدئتها:

– صدقيني لن أستغرق وقتًا طويلًا.. فقط أحتاج الاستفسار منك عن بعض الأشياء.. أما لو رفضتِ التعاون معنا فيمكنني اعتبارك متورطة في الأمر، والآن، هل تسمحين لي بالدخول؟!

فأفسحت له الزوجة على مضض، والباب موارب.. ليجلس يوسف في الصالة..كان الأثاث متوسطًا للغاية .. من صالون مذهب، ومنضدة في المنتصف.. بينما على إحدى الجدران الخضراء تقبع لوحة لوجه رجل سمين ذي لغد مبتسم يبدو أنه هو المرحوم.. شعر يوسف بالإحراج.. لكن لا وقت لمثل هذه المشاعر.. فعليه أن يكون مباشرًا هذه المرة قبل أن تقع جريمة أخرى، فقال وهو يحكُّ ذقنه والأرملة جالسة أمامه:

– أعتذر لكِ مرة أخرى عن أسلوب دخولي.. لكن الأمور لا تحتمل التأخير أو المراوغة.. على حد علمي فإن زوجك كان يعمل في فندق سيسليا متعهد حفلات، وبالتأكيد فقد سمعتِ عن مقتل المطربة مريم عزت منذ ثلاثة أسابيع..

ردت الزوجة في تبرُّمٍ:

– بالتأكيد أعرف.. مصر كلها تعرف.. فلا أحد لا يتابع أخبار السفاح الدموي الذي ترتعد منه القلوب ودوَّخ الداخلية، لكني لا أفهم علاقتي أو علاقة المرحوم بهذا الموضوع..

شعر يوسف بغضب شديد لاستهزائها لكنه تمالك أعصابه قدر الإمكان، وعلى العموم فالمرأة محقة.. لقد جعلهم السفاح موضع سخرية.. بسببه صارت سمعة الداخلية في الحضيض..

– بالطبع لاشأن لكِ.. لكن زوجك كان له يد في الذي حدث..

– ماذا تقصد؟!

– لأنه هو الذي أحضر القتيلة.. هو الذي تعاقَدَ منها.. هل كان لديك معلومات بخصوص هذا الشأن؟!

فأشاحت الزوجة بوجهها في الناحية الأخرى وهي تقول ممتعضة:

– لم أكن راضية بالمرة عن عمله.. فنحن من عائلة متدينة.. كما أنه تغير منذ أن التحق بهذا الفندق المشئوم، فبالرغم من ارتفاع أجره فيه.. لكننا لم نجنِ من ورائه سوى الخراب..

بدأ يوسف يسحب خيط الكلام من فمها ببطء..فقال وهو يستحثها على الاستئناف:

– ماذا تقصدين بأنه تغيَّر؟!

– هو لم يكن يخبرني بأي شيء.. لكن بالتأكيد عندما تتعاقد مع راقصات ومطربات شبه عاهرات من أجل إحياء حفلاتهم الماجنة فلا تتوقع أن تكون الفردوس في انتظارك.. حاولت أن أثنيه أكثر من مرة وأدعوه إلى الاستقالة، لكنه في كل مرة كان يربت على كتفي وينظر إليّ ويقول إن هذا العمل يُوفّر لنا حياة شبه كريمة، ولو تركه سيكون مآلنا الشارع..سنتحول إلى متسولين ولن نجد أحدًا برفقتنا..ثم أخبرني أنه يدخر بعض الأموال حتى يستقل بعمله ويذر هذا المجال للأبد.. لكن اتضح أن هذا كله كلام في الهواء.. فلقد دخل دائرة شيطانية..

دائرة سوداء تنتهي في قعر الجحيم.. فأدمن بعدها على شرب الكحوليات.. حتى تحول إلى شخص آخر لا أعرفه..ضبع بشري يؤذي كل مَن حوله..ثم تطوَّر به الأمر من إدمان مخدرات بسيطة كالحشيش والبانجو حتى بدأ في تعاطي البودرة..أصبح مدمن هيروين.. في الستة أشهر الماضية أصبح زوجي شخصًا آخر لا أكادُ أعرفه.. شخص آخر له ملامح زوجي نفسها لكن روحه اعتراها الكثير من القُبح.. تطفَّل عليه الشَرَّ حتى استحوذ عليه بالتدريج..كل يوم يفقد جزءًا طيبًا منه.. أحيانًا يُخيل لي أنه عقد صفقة مع الشيطان من خلاله.. باع روحه له..

فتخيل يوسف زوجها السمين في غرفة مظلمة وإضاءة حمراء دائرية مسلطة عليه وهو يجثو على ركبتيه أمام شيطان مخيف عملاق، عيناه الناريتان تشتعلان برضا مخيف حتى يمد مخالبه ناحيته ويقتلع روحه والرجل ينتفض كالمصعوق.. ثم أفاق من تخيلاته وسألها..

– لكن ما ملابسات انتحاره.. أعني هل كانت له محاولات في السابق؟!

صمتت المرأة وأطرقت النظر لأسفل.. بدت مترددة قبل أن تتكلم حتى نطقت في النهاية..

– لا لم يحاول الانتحار في السابق.. لكن في اليوم الأخير كانت حالته تبدو مزرية للغاية..فقد دخل غرفته دون أن يتكلم كلمة

واحدة.. كأنه كان يصارع أشياء تدور داخل رأسه.. حاولتُ أن ألاطفه وأسأله ماذا حلَّ به.. لكنه لم يرد، في النهاية طلب مني أن أعد له كوب شاي.. فخرجت على الفور ثم أغلق الباب عليه بالمفتاح.. كنت في المطبخ عندما سمعتُ صوت طلقة نارية مدوية فانتفضتُ ثم هُرعتُ إليه وأنا أهتفُ عليه.. لم أتخيل أنه المحب للحياة أن يقدم على أمرٍ كهذا.. فصرخت أستنجدُ بالجيران كالممسوسة حتى حطمنا الباب لنجده مرتميًا على فراشه غارقا في دمائه والمسدس في يمينه، وعلى الجدران مكتوب كلمة غريبة..

هنا انتبهت حواس يوسف واتسعت عيناه عند آخر كلماتها.. فقال في شغف:

– أي كلمة؟!

فقالت ..

– تعالَ معي..

دخل يوسف الغرفة خلفها.. ففتحت الباب ببطء.. لتخرج منها رائحة عطنة.. رائحة الموت.. كأنه لم يمسس هذه الغرفة أحد من سنين.. ثم أشارت إلى الفراش الخشبي وما فوقه.. فتقدم يوسف نحوه مذهولًا.. فعلى الحائط كانت توجد كلمة واحدة.. كلمة مكتوبة باللون الأحمر.. هنا تخيل يوسف المشهد كاملا..

تخيَّل عندما دخل الرجل إلى غرفته ذاهلًا كأنما مسّته روح شريرة، ليأمر زوجته بصوت مبحوح كي تعد له الشاي، وعندما تأكد أنها غادرت الغرفة أغلقها بالمفتاح ثم أخرج من جعبته قلم ماركر وأخذ يكتب بيد مرتعشة على الجدار هذه الكلمة التي التفت حول عنقه كأفعى.. بعدها ازدرد ريقه بصعوبة وهو يحدق إلى ساعته.. يحدق إلى لحظاته الأخيرة، فأخرج من جعبته مسدسًا قام بتلقيمه بيد مرتجفة، ثم ألصق فوهته بأسفل صدغه.. كانت الدموع تطفر من عينيه وهو يتخيل زوجته وابنه يتوسلان إليه ألا يفعلها، لكنه شعر بقوة جامحة تسيطر عليه.. صوت مخيف يأمره..

– تخلص من حياتك البائسة.. تحرر من هذه الدنيا البغيضة.. دع زوجتك وطفلك يعيشان في سلام..انتحِر..انتحِر..

فوضع إصبعه على الزناد.. ثم أغمض عينيه وهو يجز على أسنانه.. وضغط.. و..

بوووووووووووم..

اقتربَ يوسف من الجدار مخرجًا هاتفه ليلتقط صورة للكلمة المكتوبة على الجدار.. آخر كلمة كتبها المرحوم..

Le Suicidé.

***

(4)

أول شيء فعله يوسف عندما خرج من البناية أنه نشَّط الإنترنت على هاتفه ثم ضغط عدة كلمات في المتصفح،وبالفعل لم تمر ثوانٍ حتى حاز النتيجة التي كان يتوقعها.. كان بالفعل غير منطقي عندما يقدم شخص على الانتحار أن تكون آخر كلماته بلغة أخرى غير لغته الأصلية إلا لو كان يقصد منها معنًى معينًا أو يريد ترك رسالة ما..

وقد كان حدس يوسف صائبًا..فعندما أجرى بحثًا عن **Le suicidé** وأضاف إليها كلمة **painting** حصل علي نتيجة حاسمة.. نتيجة أكدت شكوكه..

ظهرت له لوحة لفنان فرنسي يُدعى "إدوارد مانيت" رسم فيها رجلًا مسكينًا مرتميًا على الفراش غارق في دمه والمسدس في يمينه.. بالضبط مثلما انتحر حسن، وهذا يعني شيئًا في منتهى الخطورة.. يعني أن..

– تبًا! انتحار حسن لم يكن سوى لوحة أخرى من لوحات زارا..

هكذا تمتم يوسف لنفسه وعيناه متسعتان..فاستقل سيارته مرة أخرى وهو عازم على تكسير عظام مدير الفندق حتى يستخرج منه المعلومات التي يخفيها،فلقد تأكد بنسبة كبيرة الآن أن السفاح شخص ما مرتبط بهذا الفندق اللعين..فقام يوسف بتسخين المحرك وقبل أن ينطلق رنّ هاتفه معلنًا عن قدوم رسالة جديدة.. فولج إليها سريعا ليجدها رسالة من رقم غريب كالعادة..رسالة تحتوي جملة واحدة بثت في جسده قشعريرة باردة.. جملة تعني الكثير من الرعب..

– لا فداء في الجحيم..

هنالك شعر يوسف بشيء لدغه في عنقه.. فوضع يده على رقبته يتحسسها ليجد سهمًا منزوعًا في يديه..سهمًا به إبرة مخدرة مثل الذي يُستخدم في صيد الحيوانات البرية، وقبل أن يدرك ما حدث رأى ظل شخص ممسك ببندقية ويبتسم.. يبتسم في خبث..

ثم غاب عن الوعي..

تمامًا.

***

(5)

أفاق يوسف ليجد نفسه مُلقًى على الأرضية كجوال.. حاول أن يفتح عينيه لكنه لاقى مقاومة شرسة كأنها مغلفة بطبقة من الصمغ.. فجاهد وجاهد حتى نجح أخيرًا.. لكنه لم يَرَ شيئًا.. كانت الرؤية عسيرة..فالغرفة غارقة في الظلام كالقبور إلا من بعض إضاءات خافتة في جوانبها.. كما أنه كان يشعر بدوار رهيب يعصف برأسه كأنما تلاشت الجاذبية وسقط في دوامة لا نهائية.. غثيان فائق ورغبة عارمة في التقيؤ.. فنهض يترنح كالسكير وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم وضع يده خلف ظهره باحثًا عن سلاحه لكنه لم يجده.. فأخذ يهتف بجنون:

– هل مِن أحدٍ هنا؟! هل من أحدٍ هنا!!!!!!!!!!!؟!

لكن لم يُجِبْه أحد.. مع أنه كان يشعر بأن ثمة أعينًا تراقبه.. فأخذ يجأر بأعلى صوته..

– هل مِن أحدٍ هنا!!!!!!!!!!!!؟!

حتى دوَّى صوت أجابه في النهاية متهكمًا:

– أهلًا بك يا صديقي.. لقد تأخرت زيارتك للغاية..

فتلفَّت يوسف حوله يبحث عن مصدر الصوت حتى أدرك أن هناك سماعة مثبتة بالسقف بجوارها إحدى الكاميرات.. فقال وهو يحاول التماسُك ..

– أين أنت يا زارا؟! أنا أعرف أنك مَن أمسكتَ بي؟! عمومًا لقد سقطت.. لقد انكشف قناعُك أخيرًا وأدركنا هويتك..استسلم الآن أفضل لك حتى يتم تخفيف الحكم عنك..

فجلجلت ضحكة زارا بعنف حتى بدت مثل ضحكات الشياطين.

– أستسلمُ..هاهاهاها!!!!!.. هل تعرف مَن تخاطب أيها الأبله؟! أنا الإنسان الفائق يا مغفل.. التنين الأعظم.. أعلى درجات الارتقاء وهدف الحياة الأعلى.. بالمناسبة أحييك على ذكائك.. لوهلة فقدت الأمل في أنك تكشف هويتي الحقيقية.. لكن بيني وبينك لقد كنت مستمتعًا معك للغاية .. كنت أجاهدُ في كتم الضحكات داخلي وأنا أعرض اللغز تلو الآخر.. لكنك اقتربتَ جدًا وكنتَ على وشك كشفي، وهذا في النهاية أمر جيد.. أن تأتيَ متأخرًا خير من ألا تأتي على الإطلاق..

شعر يوسف بقلق شديد، وهو لا يبصر عدوه.. قطرات العرق تسيل على جسده كأنهار متدفقة.. لكنه حاول كبت قلقه داخله فرفع صوته متحديًا..

– يا زارا، لماذا لا تدرك أن الأمر انتهى؟ لقد انتهت اللعبة وانكشف كل شيء.. ساعاتك أضحت معدودة.. هناك أرتال من الشرطة في إثري؟!

– هاهاهاها.. صديقي كم يؤسفني أنك حتى الآن أعمى أصم لا تدرك الحقيقة.. هل تظن أنني أخشى منك أو من رجالك.. أنت لم تدرك الآن ما أنا عليه.. عمومًا سأكافئك الآن لأنك اقتربت من حَلّ اللغز..أنت ضابط مجتهد وشريف بالفعل..

فسطعت أنوار النيون دفعة واحدة.. ليغطي يوسف بصره من قوة الإضاءة كأنه أصابه عمى لحظي، فلما استعاد بصره انتابه الهول عندما أبصر ما حوله..فالغرفة التي يقف في منتصفها لم تكن مجرد غرفة عادية أو زنزانة.. لقد كانت متحفًا.. متحفًا للرعب.. متحفًا يعجُّ بنعوش زجاجية عملاقة كل واحدة يثوي فيها أشلاء وجثث بشرية..

ثم استمر صوت زارا يهدر في فخر:

– الصراحة أنا فخور بعملي هذا..بالرغم أنني كنت أرجو أن أفتتحه في وقت آخر في احتفالية تليق به.. لكنك محظوظ يا يوسف بالفعل..أنت أول إنسان أُزيح له الستار عن متحفي الواقعي الدموي.. أعظم متحف للوحات فنية في التاريخ.. متحف زارا..

كان يوسف يكاد يُغشى عليه وهو ينقل بصره بين النعوش الزجاجية.. فكل تابوت زجاجي كان يضيئه مصباح سفلي ويحمل لوحة مكتوبًا عليه اسم باللغة العربية، وترجمته بالإنجليزية.. ففي التابوت الأول كانت توجد به أشلاء مريم عزت ومكتوب أسفلها "قطع تشريحية"، وفي الثاني رأى جسد إدريس معلقًا على عمود، وجنزير ملتف حول ضلوعه تحت اسم "زنجي يُعدم حيًا".. أما في الثالث كان جسد القاضي يسبح في الفورمالين، وهو مثبّت على منضدة خشبية ومكتوب عليه "حكم قمبيز".. بينما في الرابع أبصرَ جسد الداعية متفحمًا وهو مثبت على مقعده ومكتوب أسفله "دراسة لبورتريه فيلاسكيز للبابا إينوسنت العاشر"،وأخيرًا في الخامس رأى جسد الموسيقار "إبراهام لويس" مثبتًا على جذع شجرة بالمقلوب ومكتوب أسفله "سلخ مارسياس".. لكن النعوش الزجاجية لم تنتهِ بعد..فقد كان يوجد نعشٌ سادس لكنه خاوٍ..

في هذه اللحظة بدأ يوسف يتهاوى على الأرض فيما صوت زارا لا يزال يُدوِّي..

ما رأيك.. هاهاهاها؟! أظنُّ هذا المشهد هو أكثر مشهد استمتعتَ به في حياتك..لكن يؤسفني أنك لن تعيش لترويه فيما بعد.. لأنه الآن انطلق من مضخات خفية غاز السارين..أصدُقُك القول لقد كلفني كثيرًا..لكنها طريقة قتل جديدة، وأنا أعشق التغيير، وعامة أنا لن

أهدر وقتك فلحظاتك معدودك،وقد حانت اللحظة لأزيح الستار لك عن مفاجأتي..

فلتسعد يا يوسف.. فقد اختارك زارا ليخلدك في متحفه.. فالنعش الزجاجي الفارغ التي تنظر إليه الآن ماهو إلا لوحتك.. لوحة الرجل المُعذّب.. هاهاهاها..

هنالك ارتمى يوسف على الأرض ممسكًا بعنقه مختنقًا.. في ذات اللحظة التي رأى فيها زارا أخيرًا وجهًا لوجه وهو يمضي بتؤدة مرتديًا معطف مشمع أسود طويلًا يغطيه من الرأس حتى أخمصي القدمين.. وعلى وجهه قناع طبيب الطاعون..قناع أبيض ذو منقار طويل كالغربان وعيناه مغطاتان بنظارة زجاجية لم تنجح في إخفاء نظرة الانتصار البادية في عينيه..

حاول يوسف أن يصرخ لكن صرخته خرجت واهنة مبحوحة كأن أحباله الصوتية تمزقت شَرَّ ممزق.. ثم تمدَّد على الأرض ينتفض ويتشنج كحيوان مذبوح..في هذه اللحظة رأى ابنته تمضي نحوه بتؤدة وزوجته من خلفها تبتسم.. ثم جثت على ركبتيها وأمسكت بيده وضغطت عليها بقوة..فاحتشدت الدموع في مقلتيه حتى طفرت منهما..بعدها خرجت رغاوى بيضاء من فمه.. ثم توقف قلبه.. للأبد.

---

* قناع الطاعون الشهير اخترعه الطبيب الفرنسي تشارليز دي لورمي عام 1619.

(6)

تباعًا.. كما قلتُ فأسماء الضحايا لم تكن قط أسماء عادية...

لو دققتَ في الأمر ستلاحظ أن أسماءهم كلهم أسماء أنبياء..

أسماءهم كلهم أسماء أنبياء..

***

(7)

الآن أُسجِّل أول مقطع لي.. الإعلان الأول عن فتح بوابات الجحيم.. فانتبهوا أيها الغافلون.. منذ الآن لن تسمعوا سوى أخبار الموت.. سيطاردكم حارس الظلام بمنجله في كل مكان.. وسيسجل التاريخ أني في هذه اللحظة بدأتُ بصُنع تحفي الخالدة بمداد من الدم ودموع الألم.. اللحظة التي ستتحول فيها مدينتكم إلى قطعة من الجحيم.. عندما تصبح مدينة ديس ومستنقعات نهر ستيكس أماكن مرفهة بالنسبة إلى ما ستشهدونه.. إنني أعرف مصيري.. ذات يوم سوف يرتبط اسمي بذكري شيء مرعب.. يرتبط بكارثة ليس لها مثيل.. أنا لستُ رجلاً.. أنا ديناااااااميت..

***

كانت أعمدة الدخان تتصاعد في سماء القاهرة..قرقعة الانفجارات تصمُّ الآذان.. انفجار تلو الآخر.. كأن يوم القيامة يحدث في القاهرة وحدها..انفجارات متفرقة في أماكن حيوية بالعاصمة..المتحف المصري..الأهرامات..القلعة..مجمع التحرير.. البنك المركزي.. مجلس الشعب.. سيتي ستارز.. حتى وزارة الداخلية نفسها..كل هذه البقاع كانت توجد بها إما عبوات ناسفة مزروعة أو سيارات مفخخة.. بينما في المقصورة أعلى برج القاهرة وقف زارا يحدق إلى هذا المشهد مُنتشيًا.. لقد وصل إلى لحظة الذروة.. لحظة التحول الكبرى.. والآن أمام عينيه تتحقق لوحته الأخيرة.. الجحيم..

خلعَ قميصه ليظهر جسده المثالي.. جسده القوي الذي طالما أخفاه تحت قميصه.. كانت عضلاته في أفضل حالاتها.. أما على ظهره فظهر وشم لوحته الأخيرة.. الجحيم.. والتي فيها يظهر الشيطان وهو يقذف الناس في الجحيم.. بينما في الأسفل سمكة قرش عملاقة تلتهمهم.. فالتقط زارا نفسًا عميقًا، وهو يشعر بالدماء تتدفق في رئتيه..كان يشعر بأنه أقوى من أي شيء على وجه الأرض.. لأنه بالفعل هو أقوى مخلوق على وجه الأرض..فقد بلغ الآن أعالي الذُرى.. بلغ الكمال..ففي هذه اللحظة قد استحال إلى الإنسان الأعلى.. الإنسان الفائق..

***

فقد. نزل زارا إلى الميدان ولن يثنيه شيء حتى يركع له الجميع.. حتى لو اضطرَّ أن يخمد أنفاسكم ويقتلع عظامكم..

***

إني سأعصف كالريح الصرصر على الأرجاس فأخمد أنفاسهم بأنفاسي.. ذلك هووو المقدووووووووووور..

***

ما أنا إلا مُنبئ بالصاااااعقة.. أنا القطرة السااااااااقطة .. أنا النار الحارقة.. أنا اللحظة الفارقة.. أنا القوة الخارقة.. وما الصاعقة التي أُبشِّر بها إلا الإنسان الفائق.. أنااا.. زاراااااااااااااااااااااا..

***

ارتسمت على ثغره ابتسامة واسعة.. والآن بعد أن بلغ ذروة التطور..ما عليه سوى التحليق..فتسلق حافة المقصورة والشمس الحارقة تلفح وجهه.. ثم ألقى نفسه وهو يقهقه.. يقهقه كالمجانين.. وهو يحلق بذراعيه.. ويصيح بجملته الأخيرة:

إنني أطير بالفعل..

الآن أنا نور.

***

(8)

إنني أطير بالفعل..

الآن أنا نور.

***

جريدة المصري اليوم.. 21 يناير..

انتحار ملياردير..

كتب سيد توفيق..

عثرت سلطات الأمن المصرية في تمام الثانية ظهرًا من يوم الأحد على جثة الملياردير الشاب الشهير "عمر الحسيني" أمام برج القاهرة، ذلك بعد أن أفاد شهود بأنه ألقى نفسه من أعلاه.. وقد تم نقل الجثة بإذن من النيابة لتشريحها في مشرحة زينهم

لمعرفة السبب الحقيقي للوفاة ولاستبعاد أي شبهة جنائية .. ولا تزال التحريات جارية لمعرفة الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى الانتحار ..

جدير بالذكر أن الملياردير الشاب هو صاحب شركة الاتصالات العملاقة "إيجي فون" وفندق "سيسليا" اللذين ورثهما عن أبيه منذ أكثر من عام.

***

متحف زارا

اللوحات..

Anatomical pieces

قطع تشريحية
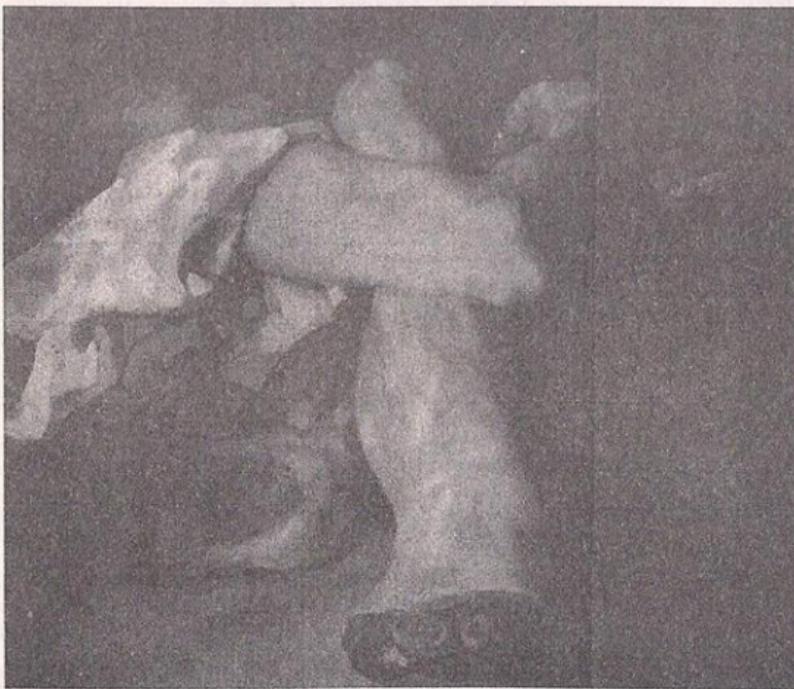
زنجي يُعدم حيًّا A negro hung alive
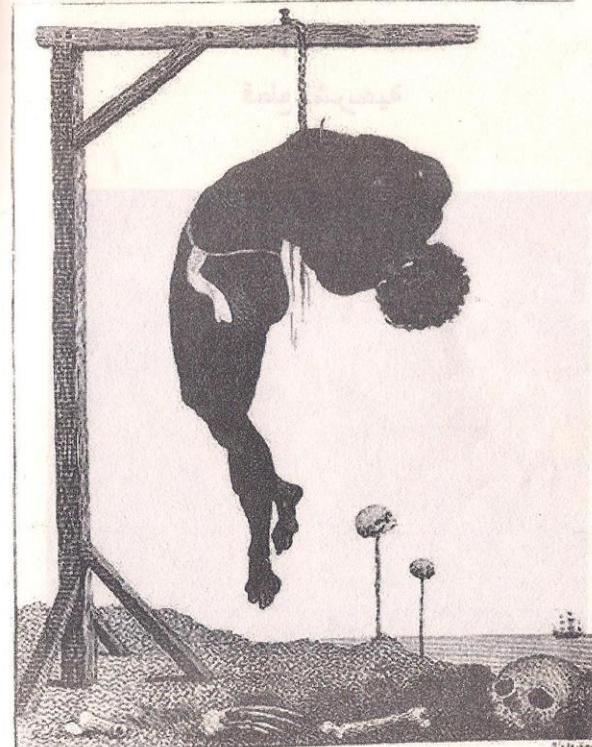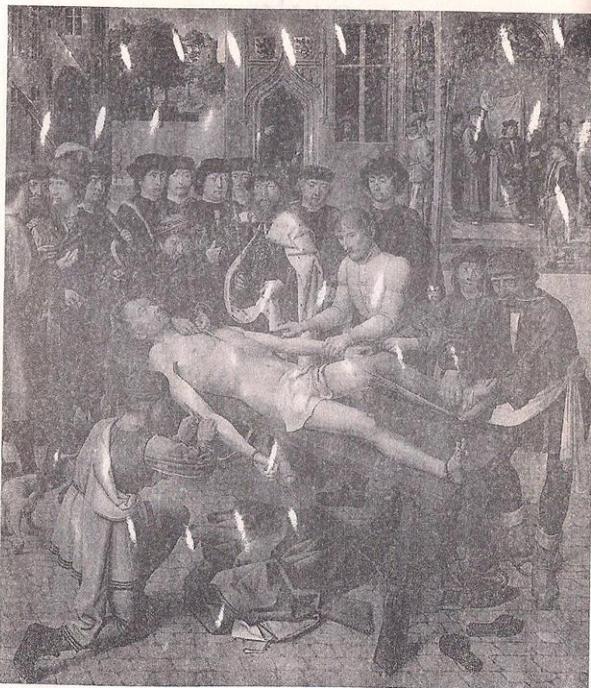
حكم قمبيز The Judgment of Cambyses
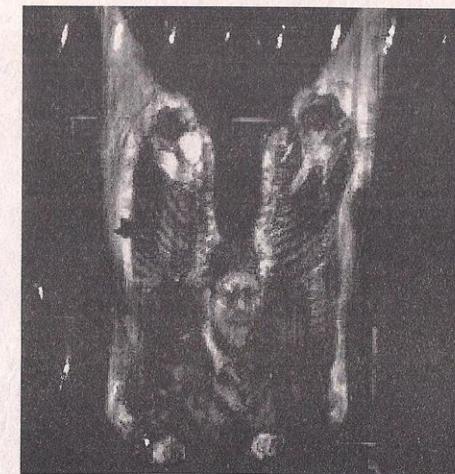
Study after Velazquez's Portrait of Pope Innocent X

دراسة لبورتريه فيلاسكيز للبابا إينوسنت العاشر

جسد ولحم

رأس

The Archangel Michael defeating Satan

الملاك ميخائيل يهزم الشيطان

The flaying of marsyas
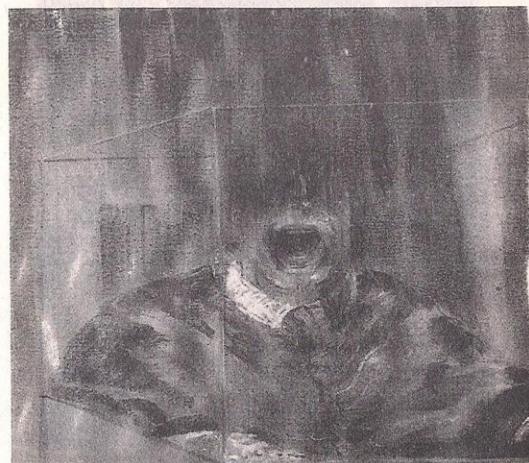
سلخ مارسياس

Disasters of the war

كوارث الحرب

الانتحار Le Suicidé
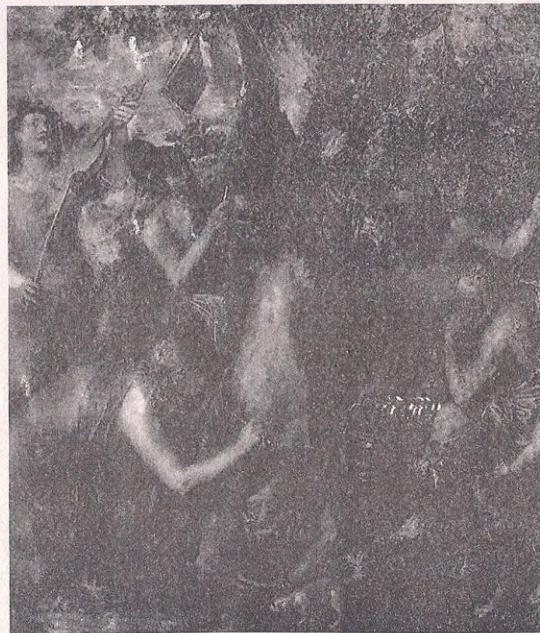
الرجل المُعذَّب The anguished man

The Hell

الجحيم

"لا فداء في الجحيم"

الأقنعة..

باوتا

فولتوت

أرل كينو
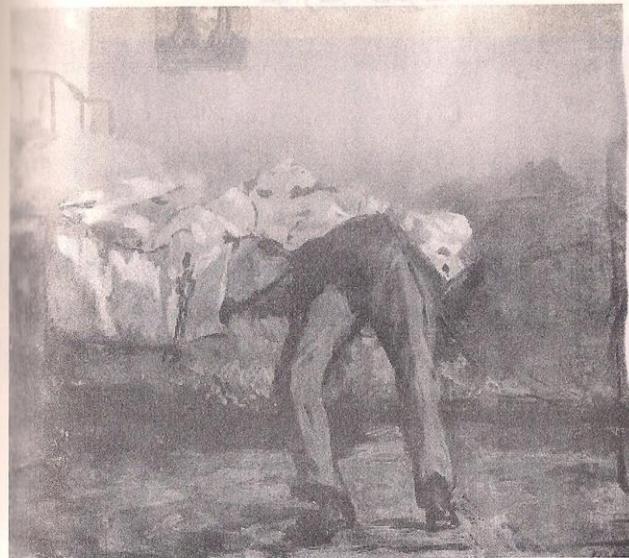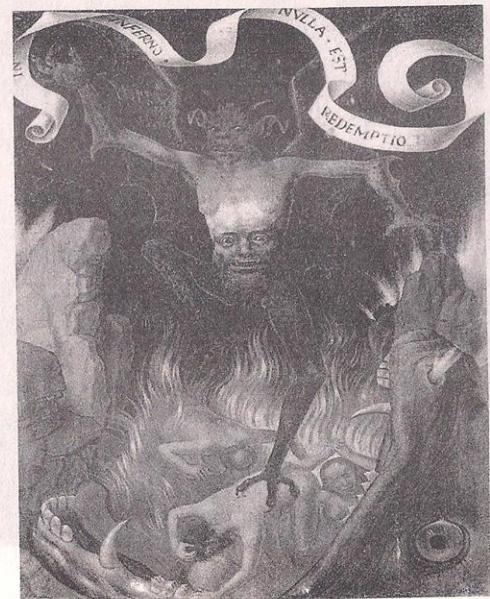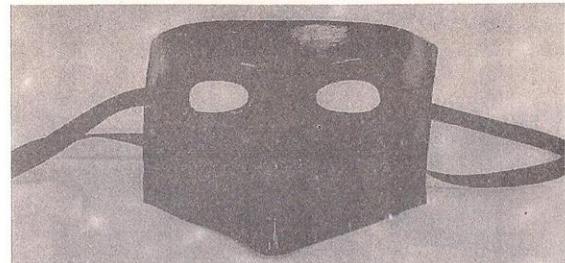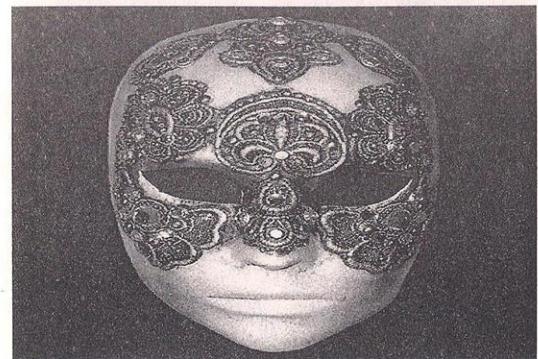
ساتير

بانتالون

طبيب الطاعون
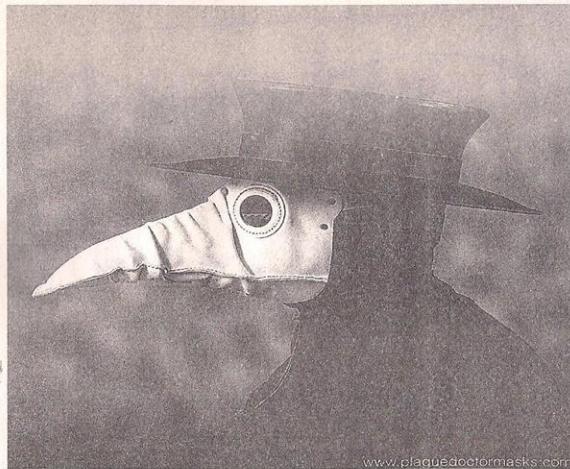
صمتت الطبيبة وهلة كأنها تقوم بتنميق الإجابة واختيار كلماتها، ولا عجب فالآلاف يتابعونها.. ثم تنهدت وقالت بصوت عميق..

– كل سفاح له بصمته الخاصة.. نمطه المتفرد الذي يحاول أن يكرره في كل جريمة..فبعضهم يترك توقيعا.. يقتلع جزءا معينا من الجثة كتذكار.. أو يستخدم نفس وسيلة القتل في كل مرة..

فعلي سبيل المثال..كان الزودياك يترك رسالة مشفرة في كل جريمة قتل..

كولن أيرلند يقتل الشواذ جنسيا..

موريس سولمون.. وجاك السفاح يقتلان العاهرات..

تسوتومو ميازاكي يرتشف من دماء ضحاياه بعد جرائمه..

تيد بيندي يشوه الجثث ويحتفظ برؤوس ضحاياه..

وعلى هذا النحو فقاتلنا هنا ليس عشوائيًا مطلقا..ولكنه مهووس بالفن الأسود فينتقي ضحاياه بعناية وينقل أبشع اللوحات الفنية إلى الواقع ويقلدها بالضبط..

وهذا هو الخطير في الأمر.. فهناك العشرات من اللوحات الشيطانية على مدار التاريخ الفني..وهذا يجعل القوس مفتوحا..دائما..

Cover by #ahz_art